(4)

البراغماتيّة وأثرها في المعرفة الدينيّة.. ويليام جيمس نموذجًا

فؤاد صالح الشحماني[1]

الخلاصة

نسعى في هٰذه المقالة إلى إلقاء الضوء على الفلسفة البراغماتيّة الّتي تعدّ من أهمّ الفلسفات الّتي ظهرت على الساحة الفكريّة في المجتمع الغربيّ، وبالخصوص في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وتبيين أهمّ المنطلقات الّتي استندت عليها هٰذه الفلسفة من حيث الأنماط والمبادئ، ومدى تأثيرها في المعرفة الدينيّة، ومن ثمّ التركيز على منهج أبرز روّاد هٰذه الفلسفة وهو ويليام جيمس، وقد كان الأسلوب المتّبع في هٰذا المقال هو الأسلوب النقديّ الّذي حاولنا فيه نقد أهمّ المبادئ المعرفيّة الّتي استندت عليها هٰذه الفلسفة، وخصوصًا أنّها أكّدت مبدأ أصالة المنفعة والعمل، حيث تعدّ الفكرة الصحيحة والصادقة هي الّتي تعطي نتائج عمليّةً وفق الأسس التجريبيّة، فذهبت إلى حدودٍ متطرّفةٍ في تبنّيها المنهج التجريبيّ الّذي يقوم على أساس اكتشاف الظواهر المادّيّة وما تقدّمه هٰذه الظواهر من منفعةٍ، وتحاول أن تقصي البعد الميتافيزيقيّ المعرفيّ عن ساحة الحياة، وتجعل الفرد هو محور كلّ شيءٍ ومقياس كلّ شيءٍ في الحياة.

الكلمات المفتاحيّة: البراغماتيّة، الفرديّة، الأنسنة، التجربة، الحقيقة، إرادة الاعتقاد.

---

(1) فؤاد صالح الشحماني، العراق، باحثٌ في الفلسفة والكلام، جامعة المصطفى العالميّة.

fuadsalih12345@gmail.com

A Critical Study of Pragmatic Philosophy and it's Impact on Religious Knowledge: William James as a Model

Fouad Saleh Al-Shahmani[1]

Abstract

In this article we seek to shed light on pragmatic philosophy, which is one of the most important philosophies that appeared on the intellectual arena in Western society, especially in America. We wish to explain the most important premises on which this philosophy was based on in terms of trends and principles, and the extent of their influence on religious knowledge, then focusing on the methodology of the most prominent pioneer of this philosophy, William James. The method used in this article is a critical approach, aiming at criticizing the most important epistemic principles on which this philosophy was based, especially as it emphasized on the principle of pragmatic originality, in which the correct and honest idea is the one that gives practical results according to experimental foundations. It went to extreme limits in its adoption of the experimental method, which is based on the discovery of material phenomena and the benefits provided by these phenomena, and it tries to exclude the metaphysical, epistemic dimension from the arena of life, making the individual the center of everything and the measure of everything in life.

Key words: Pragmatism, Individualism, Humanism, experience, truth, will to believe.

[1]Researcher in Philosophy and Theology, Al-Mustafa International University, Iraq. Email: fuadsalih12345@gmail.com

المقدّمة

لقد أصبحت الفلسفة البراغماتيّة من الفلسفات الّتي ذاع صيتها في المجتمعات الغربيّة على وجه العموم، وفي أمريكا على وجه الخصوص، حيث المنهج المعرفيّ المتّبع فيها هو المنهج البراغماتيّ النفعيّ الّذي يدعو إلى أصالة العمل وما يترتّب عليها من فوائد ماديّةٍ ملموسةٍ، وهٰذا كلّه استنادًا إلى التجربة العلميّة وتتبّع النتائج العمليّة، الّتي دعا لها روّاد هٰذه الفلسفة بدءًا من مؤسّسها تشارلز ساندرس بيرس (Charles Sanders Peirce) ووليام جيمس (William James) وجون ديوي (John Dewey) ، إلى الفلاسفة الّذين ساروا على خطاهم في الوقت الراهن.

وقد تبيّن من خلال البحث أن الفلسفة البراغماتيّة جعلت النتائج المترتّبة من أيّ عملٍ هي المعيار في حسن ذٰلك العمل أو قبحه، وطبّقوا هٰذا على الدين، فأصبح الدين نافعًا في بعض الأحيان إذا لم نستطع أن نستبدله بغيره؛ وذٰلك لأنّ معيار الصدق والحقيقة عندهم بالمقلوب، فمتى ما كان الحقّ نافعًا فهو حقٌّ، ومتى ما كان غير نافعٍ فهو ليس بحقٍّ.

ويُعتبر جيمس على وجه الخصوص من أهمّ الفلاسفة الّذين أثّروا في أسلوب الحياة ونمطها في أمريكا، فقد ذهب في نظريّته المعرفيّة إلى القول بالتجربة العلميّة، ونفي كلّ معرفةٍ تغاير آثارها ونتائجها، وهٰذا بدوره يؤدّي إلى إنكار الحقائق المطلقة والقيم الثابتة؛ لأنّ التجربة وحدها لا تستطيع أن تعطي مفهومًا عامًّا وشاملًا للحقائق، فهي في حالة تغيّرٍ مستمرٍّ، ومن ميزتها عدم الثبات، وفي الحقيقة والصدق أنّ الحقّ يقوم فيما هو مفيدٌ ونافعٌ للفكر، وأنّ الحقّ يتمثّل في الفرد وهو مصدر القيم، وهو الّذي يولّدها حسب ما يراه من منفعةٍ تخدم مصالحه، حيث جعل المقياس في قبول القيم وعدمها هو الفرد نفسه، وهٰذا يدلّ على محوريّة الإنسان بدل محوريّة الله.

وهٰذا هو مذهب الأنسنة الّذي بدوره يؤدّي إلى النسبيّة في كلّ شيءٍ، حيث يكون الحقّ مدار الفرد وما يراه حتّى ولو كان على حساب الآخرين وفي ضررهم، فعند جيمس القبيح ما قبّحه الإنسان الفرد، والحسن ما حسّنه الإنسان الفرد، فتكون القيم الأخلاقيّة تابعةً لنفس الفرد وما يراه مناسبًا مع شأنه، بحيث يقوم بصياغة قيمه أو قانونه الأخلاقيّ حسب ما يراه مناسبًا لرغباته وحاجاته، فتكون على هٰذا الأساس القيم الأخلاقيّة متعدّدةً بتعدّد الأفراد.

أوّلًا: معنى البراغماتيّة (Pragmatism)

البراغماتيّة لفظٌ مشتقٌّ من الكلمة اليونانيّة براغما (pragma)، وتعني العمل، والّتي تأتي من كلمة مزاولة أو العمل النافع، وهي مذهبٌ فلسفيٌّ يقرّر أنّ العقل لا يبلغ غايته إلّا إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجح. فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة، أي الفكرة الّتي تحقّقها التجربة. فكلّ ما يتحقّق بالفعل فهو الحقّ، ولا يقاس صدق القضيّة إلّا بنتائجها العمليّة. [مجمع اللغة العربيّة، المعجم الفلسفيّ، ص 111]

ومعنى هٰذا أنّه لا يوجد في العقل معرفةٌ أوّليّةٌ تستنبط منها نتائج صحيحةٌ، بغضّ النظر عن جانبها التطبيقيّ، بل الأمر كلّه رهن بنتائج التجربة العلميّة الّتي تقطع مظان الاشتباه، وإذا كانت الحقائق العلميّة تتغيّر بتغيّر العصور، فإنّ الصدق في الحاضر قد يصبح غير صادقٍ في المستقبل، والنتيجة أنّ صدق القضايا يتغيّر بتغيّر العلم. [صلبيا، المعجم الفلسفيّ، ص 402]

وقد أوجد هٰذا المصطلح الفيلسوف الأمريكيّ تشارلز بيرس من الكلمة اليونانيّة (pragma) ليدلّ بحداثة اللفظ على حداثة المذهب، وإلّا فقد كان

بوسعه أن يختار كلمةً أخرى من اللغة المستعملة ليشير بها إلى الجانب العمليّ التطبيقيّ الّذي أراده. [زكي نجيب محمود، من زاويةٍ فلسفيّةٍ، ص 202]

ثمّ تطور هٰذا المصطلح على يد ويليام جيمس ومن ثمّ جون ديوي، وإن اتّفقا في الأصل، ولٰكن لكلّ واحدٍ منهم نظرته الخاصّة للبراغماتيّة. [انظر: النشار، مدخلٌ جديدٌ إلى الفلسفة، ص 164]

ثانيًا: البراغماتيّة وجذورها الفلسفيّة

1- نشأة البراغماتيّة

نشأت الفلسفة البراغماتيّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلاديّ وبداية القرن العشرين، [إبراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، ص 69] في أمريكا على يد الفيلسوف تشارلز ساندرس بيرس، إذ يعدّ أوّل من أطلق مصطلح البراغماتيّة (Pragmatism) في مقالةٍ له حيث ذكر فيها: المفهوم يكون ذا معنًى إذا أنتج موضوعه آثارًا تدخل في إطار الخبرة تحت ظروفٍ نتحكّـم فيها، حيث يكون المفهوم واضحًا إذا ما تيقّنّا وتحقّقنا من النتائج، الّتي تلزم عنه عندما نحدّد شروط موضوع تصوّرنا. ويتساءل بيرس: "ما معنى أيّ فكرةٍ ما، وما أهمّيّتها؟"، ويجيب: "طريقة السلوك المتولّد عنها". وهو ما يعني أنّ الموضوع هو محتوى الخبرة ومضمونها، وأنّ قيمة الفكرة وصدقها تكمن في نتائجها العمليّة المفيدة، الّتي هي الإحساسات المباشرة فقط. [جلال، العقل الأمريكيّ، ص 120]

وقرّر أنّ مبدأ الذرائعيّة يكمن في النظر إلى النتائج العمليّة، الّتي نأمل أن نحصل عليها من وراء أفكارنا، ويقصد أنّ الفكرة لا تتحقّق ذاتها إلّا

عندما تؤدّي إلى نتيجةٍ فعّالةٍ، فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة أو الفكرة الّتي تخرج منتصرةً من امتحان التجربة والزمن. [المرهج، الفلسفة البراجماتيّة، ص 61]

وقد طوّر الفلسفة البراغماتيّة بعد ذٰلك الفيلسوف ويليام جيمس، وتعامل مع صدق الأفكار من عدمه من منطلق الفوريّة العمليّة، أي أنّ الحكم على صدق فكرةٍ ما هو مدى ما تقدّمه من نتائج عمليّةٍ قيميّةٍ فوريّةٍ، وقد نالت كتاباته اهتمامًا كبيرًا في الأوساط الفلسفيّة، وكان لها الدور الفاعل والملحوظ في الفلسفة المعاصرة، وقد نجح في ذٰلك باعتراف مؤسّسها بيرس حيث قال له: «لا يوجد مفكّرٌ أكثر ابتكارًا وابتداعًا منك في جيلنا برمّته، لقد أوحيت لي شخصيًّا بأمورٍ في غاية الأهمّيّة أكثر من أيّ شخصٍ آخر قُدّر لي أن أعرفه» [المرهج، الفلسفة البراجماتيّة، ص 158]، وفي موضعٍ ثانٍ يقول له: «لٰكنّك وفّقت أعظم توفيقٍ في أن تبسطها على صفحتك بكلّ هٰذا الوضوح والجلاء والصفاء في أسمى مراتبها، وبيسرٍ سائغٍ لم يكن في الإمكان أبدع ممّا كان» [المصدر السابق، ص 158].

ثُمَّ جاء الفيلسوف جون ديوي ليطوّر هٰذه الفلسفة، وأن يفتح لها مجالاتٍ عديدةً للتطبيق، حيث أدخل الوسيلة في مفهوم البراغماتيّة، فجعل المعرفة النظريّة أداةً للعمل ووسيلةً لزيادة قيمة التجارب السابقة. وغيرهم من الفلاسفة الأقل شهرةً. [انظر: رشوان، مدخلٌ لدراسة الفلسفة المعاصرة، ص 41]

2- علاقة البراغماتيّة بالفلسفات القديمة

لم تكن البراغماتيّة وليدة عصرها فحسب، ولم تكن جديدةً في كلّ أفكارها، بل هي امتدادٌ لغيرها من الفلسفات القديمة، مثلها مثل الكثير

من الفلسفات المعاصرة لها، حيث قال ويليام جيمس: «لا يوجد أيّ شيءٍ جديدٍ على الإطلاق في الطريقة البراجماتيّة، لقد كان سقراط بارعًا حاذقًا فيها، واستعملها أرسطو تنسقًا وانتظامًا بطريقةٍ منهجيّةٍ، وقد أسهم كلٌّ من لوك وبركلي وهيوم بقسطٍ خطيرٍ ذي شأنٍ في خدمة الحقيقة بواسطة البراجماتيّة» [ويليام جيمس، البراجماتيّة، ص 70].

وبالنتيجة نستطيع القول بأنّ البراغماتيّة من الفلسفات الّتي لها جذورها الفكريّة الّتي تمتدّ إلى الفلسفة اليونانيّة القديمة، بالإضافة إلى تأثّرها بالفلسفات والنظريّات الحديثة. وسنشير إلى بعض الشواهد الدالّة على انتماء البراغماتيّة إلى بعض الفلسفات القديمة والحديثة.

أ- علاقة البراغماتيّة بالسفسطائيّة

يعدّ الاتّجاه السفسطائيّ هو أوّل الاتّجاهات الّتي تأثّرت به الفلسفة البراغماتيّة؛ لأنّها جعلت الإنسان الفرد محور اهتمامها، وهٰذا يعرف من خلال كلمة السفسطائيّ المعروف بروتاغوراس (Protagoras) الّتي قال فيها: «الإنسان مقياس الأشياء جميعًا، هو مقياس وجود ما يوجد منها ومقياس ما لا يوجد» [كرم، تاريخ الفلسفة اليونانيّة، ص 63]. ونكتفي بشرح أفلاطون لهٰذه العبارة الّتي تدلّ على الاهتمام بالفرديّ في الاتّجاه السفسطائيّ حيث قال: «يتبيّن معناها بالجمع بين رأي هرقليطس في التغيّر المتّصل، وقول ديموقريطس: إنّ الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة فيخرج منهما "أنّ الأشياء هي بالنسبة إليّ على ما تبدو لي، وهي بالنسبة إليك على ما تبدو لك، وأنت إنسانٌ وأنا إنسانٌ"» [المصدر السابق، ص 63]. فالمقصود بالإنسان هنا الفرد من حيث هو كذٰلك لا الماهيّة النوعيّة، ولمّا كان الأفراد يختلفون سنًّا وتكوينًا وشعورًا، وكانت الأشياء تختلف

وتتغيّر، فإنّ الإحساسات تتعدّد بالضرورة وتتناقض: «أليس يحدث أنّ هواءً بعينه يرتعش منه الواحد ولا يرتعش الآخر، ويكون خفيفًا على الواحد عنيفًا على الآخر؟ فماذا عسى أن يكون في هٰذا الوقت الهواء في ذاته؟ هل نقول: إنّه باردٌ أم نقول: إنّه ليس باردًا؟ أم نسلّم أنّه باردٌ عند الّذي يرتعش، وأنّه ليس ببارِدٍ عند الآخر؟» «وإذن فلا يوجد شيءٌ هو واحدٌ في ذاته وبذاته، ولا يوجد شيءٌ يمكن أن يسمّى أو يوصف بالضبط؛ لأنّ كلّ شيءٍ في تحوّلٍ مستمرٍّ» [المصدر السابق، ص 63؛ انظر: رشوان، مدخلٌ لدراسة الفلسفة المعاصرة، ص 45]. «وقد أيّد ول ديورانت ـ المؤرّخ والفيلسوف الأمريكيّ ـ تفسير أفلاطون لمقولة بروتاغوراس، واعتبره تفسيرًا صحيحًا، بل إنّ العبارة معناها الانتقال بالمعرفة من الموضوع إلى الذات، ويرى أنّه على يد بروتاغوراس بدأت الذاتيّة في الفلسفة» [بخيت، البراجماتيّة الأمريكيّة المعاصرة.. أصولها اليونانيّة، ص 190]. وهٰذه هي النسبيّة بعينها الّتي ذهبت إليها البراغماتيّة.

ب- علاقة البراغماتيّة بالأبيقوريّة

كان للإبيقوريّة أثرٌ كبيرٌ على الفلسفة البرغماتيّة، إذ اتّفقتا على مبدإ المنفعة المترتّبة على العمل، والّتي أطلقت عليها الإبيقوريّة اللذّة، حيث يقرّر إبيقور (Epicurus) أنّ غاية الحياة اللذّة، فيقول: «تشهد التجربة أنّنا نطلب اللذّة، وأنّ الحيوان يطلبها مثلنا بدافع الطبيعة دون تفكّرٍ ولا تعليمٍ... ومتى تقرّر أنّ اللذّة غايةٌ لزم أنّ الوسيلة إليها فضيلةٌ... فليس من الحقّ وصف اللذّة بأنّها جميلةٌ أو قبيحةٌ، شريفةٌ أو خسيسةٌ؛ فإنّ كلّ لذّةٍ خيرٌ، وكلّ وسيلةٍ إلى اللذّة خيرٌ كذٰلك» [كرم، تاريخ الفلسفة اليونانيّة، ص 262]. إذ أصبحت عندهم المنفعة المترتّبة عن تحصيل اللذّة ومفارقة الألم

هي المعيار المطلق، يقول إبيقور: «إنّ مقياس الخير هو اللذّة ومفارقة الألم، وهٰذا شيءٌ لا حاجة بنا إلى البرهنة عليه ... فالأصل إذن في كلّ أخلاقٍ خيّرةٍ أن تتّجه نحو تحصيل اللذّة والابتعاد عن الألم» [بدوي، الموسوعة الفلسفيّة، ج 1، ص 86].

وقد اتّفقت الإبيقوريّة مع البراغماتيّة على القول بالعلاقة الوثيقة بين الفكر والعمل، فأنكرت الإبيقوريّة «على الإنسان حقّ الاشتغال بالعلم من أجل العلم؛ لأنّ العلم من أجل العلم لا يفيد شيئًا إذا لم يكن تحته عملٌ، أو إذا لم يكن مؤدّيًا إلى السعادة عن طريق العمل والتطبيق» [المصدر السابق، ص 82]. وهٰذا نفس ما قاله جيمس: «الفكرة مفيدةٌ لأنّها صحيحةٌ أو أنّها صحيحةٌ لأنّها مفيدةٌ، إنّ كلتا هاتين العبارتين تعنيان بالضبط نفس الشيء، ألا وهو أنّ لدينا هنا فكرةً تحقّقت، ويمكن تحقيقها وإقامة الدليل عليها» [ويليام جيمس، البراجماتيّة، ص 241]. وعلى ذٰلك فالإبيقوريّون يشتركون مع البراغماتيّة المعاصرة في النشاط العمليّ، وعلاقة الفكر بالعمل والنفع الحاصل منهما.

جـ- علاقة البراغماتيّة بالنفعيّة

ظهرت الفلسفة النفعيّة في إنجلترا على يد آدم سميث (Adam Smith) (1723_ 1790) ومن ثمّ تطوّرت على يد مجموعةٍ من العلماء، إذ ترى النفعيّة أنّ البحث عن المنفعة هو الغاية الّتي يسعى الإنسان إلى تحقيقها، حيث يقول بنثام (Jeremy Bentham): «إنّ الطبيعة قد وضعت بني الانسان تحت سيطرة حاكمين ذوي سيادةٍ، هما الألم واللذّة، وهما يحكمان في كلّ ما نفعله، وفي كلّ ما نقول وفي كلّ ما نفكّر فيه... والإنسان يبقى خاضعًا لهما دائمًا، سواءً كان بالفعل أو بالواقع» [بدوي، الموسوعة

الفلسفيّة، ج 1، ص 364؛ انظر: نصري، دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة، ص 188؛ انظر: جون ربورر، الفلسفة وقضايا العصر، ص 168].

لقد تأثّر القائلين بالفلسفة البراغماتيّة بالنفعيّة بدءًا بمؤسّسها بيرس، الّذي رافق نيكولاس سانت جرين (Nicholas Green)، أحد أتباع بنثام ـ كما يقول بيرس ـ الّذي نقل لهم تعريف ألكسندر باين (Alexander Payne) تلميذ جون ستيورت ميل (John Stuart Mill) رائد النفعيّة، وذٰلك في "النادي الميتافيزيقيّ" (The Metaphysical Club) الّذي شهد ولادة البراغماتيّة. حيث عرف باين البراغماتيّة بأنّها: «الشيء الّذي يصبح الإنسان على أساسه مستعدًّا للفعل (العمل)» [المرهج، الفلسفة البراجماتيّة، ص 23]. فأثنى بيرس على هٰذا التعريف وجعل البراغماتيّة نتيجةً له، وعدّ باين الجدّ الفعليّ للبراغماتيّة، حيث قال: «وغالبًا ما كان يحضّ على أهمّيّة استعمال هٰذا التحديد، وهٰذا التحديد يرينا أنّ البراغماتيّة ليست إلّا نتيجةً له؛ ولذٰلك أميل إلى اعتبار باين الجدّ الأوّل للبراغماتيّة» [المصدر السابق، ص 23].

وكذٰلك ويليام جيمس الّذي كان من أعضاء "النادي الميتافيزيقيّ" أيضًا، فقد صرّح بحبّه لجون ستيورت ميل، حيث وضع في صفحة الإهداء في كتابه "البراجماتيّة" عبارة: «إلى ذكرى جون ستيوارت ميل، الّذي كان أوّل من علّمني سعة الأفق البراجماتيّة، والّذي يطيب لخيالي أن يتصوّره كقائدٍ لنا لو كان اليوم حيًّا» [ويليام جيمس، البراجماتيّة، الإهداء]. وعلى هٰذا الأساس نستطيع القول إنّ النفعيّة والبراغماتيّة صورتان لعملةٍ واحدةٍ، إذ يبحثان معًا عن الفائدة العمليّة من وراء الأفكار والقيم، وكذٰلك أساسهما المعرفيّ يبتني على التجربة الحسّيّة.

د- علاقة الفلسفة البراغماتيّة بالتجريبيّة

ذهب القائلون بالمنهج التجريبيّ إلى أنّ التجربة المصدر الرئيس للمعرفة، إذ كانت آراء فرانسيس بيكون (Francis Bacon) (1561ـ 1626 م) ذات أثرٍ بالغٍ في تأسيس المنهج التجريبيّ؛ وذٰلك ـحسب قوله ـ لتخليص العقل من الأوهام الّتي يطلق عليها بيكون "أصنام العقل"! [انظر: كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 53 – 56]، حيث ذهب إلى أنّ العقل هو: «عبارةٌ عن أداة تجريدٍ وتصنيفٍ ومساواةٍ ومماثلةٍ، فإذا ترك بحرّيّةٍ على سليقته انقاد لأوهامٍ طبيعيّةٍ فيه، ومضى في جدلٍ عقيمٍ يقوم في تمييزاتٍ لا طائل تحتها»؛ ولهٰذا السبب ذهب إلى المنهج الاستقرائيّ الّذي يقوم على التجربة. [المصدر السابق، ص 56 و57]

ثمّ جاء جون لوك (John Locke) (1632 ـ 1704 م) وذهب إلى أنّ النفس في الأصل كلوحٍ مصقولٍ لم ينقش فيه شيءٌ، وأنّ التجربة هي الّتي تنقش فيها المعاني والمبادئ جميعًا. [المصدر السابق، ص 149]

وقد صرّح أصحاب الفلسفة البراغماتيّة بانتمائهم إلى المنهج التجريبيّ، حيث يقول ويليام جيمس: «ولقد أسهم كلٌّ من لوك وباركلي وهيوم بقسطٍ خطيرٍ ذي شأنٍ في خدمة الحقيقة بواسطة البراجماتيّة»، وقال أيضًا: «إنّ البراجماتيّة تمثّل اتّجاهًا مألوفًا تمامًا في الفلسفة، ألا وهو الاتّجاه التجريبيّ، ولٰكنّها تمثّله، كما يخيّل إليّ، في شكلٍ أكثر تطرّفًا» [ويليام جيمس، البراجماتيّة، ص 70 و71].

ومع اتّفاق الفلسفتين في الاعتماد على الحسّ والتجربة، إلّا أنّ البراغماتيّة تؤكّد أهمّيّة العقل ولا تلغي دوره المعرفيّ، يقول ويليام جيمس: «في الانسان ميولٌ وحاجاتٌ، وإنّ العقل وسيط تحقيقها في عالم التجربة، بما يؤكّد من مقترحاتٍ تستلزم التحقق» [زيدان، وليم جيمس، ص 18].

ثالثًا: أنماط البراغماتيّة

1- البراغماتيّة الإنسانيّة

وهي الّتي ترى أنّ كلّ ما يحقّق الأغراض والرغبات الإنسانيّة حقٌّ، وهٰذا النمط يتّضح في كتابات وليم جيمس، وبالذات في كتاباته عن الأخلاق وعن الدين، وقد نقل الفيلسوف الإنجليزيّ (شيلر) (Friedrich Schiller) هٰذا النمط إلى إنجلترا، وأسّس المذهب الإنسانيّ. [الحجيليّ، البراجماتيّة.. عرضٌ ونقدٌ، ص 297]

2- البراغماتيّة التجريبيّة

وهي ترى أنّ الحقّ هو ما يؤدّي إلى عملٍ بمعنى ما يكون متحقّقًا تجريبيًّا [رشوان، مدخلٌ لدراسة الفلسفة المعاصرة، ص 44]، وهٰذا هو المبدأ الّذي تقوم عليه البراغماتيّة الّتي تعدّ تطويرًا للمنهج التجريبيّ. [الحجيليّ، البراجماتيّة.. عرضٌ ونقدٌ، ص 297]

3- البراغماتيّة الاسميّة

وهي صورةٌ فرعيّةٌ من البراغماتيّة التجريبيّة، إذ ترى أنّ نتائج الأفكار هي ما نتوقّعه في صورة وقائع جزئيّةٍ مدركةٍ في الخبرات الّتي تحدث في المستقبل، وعلى سبيل المثال، فإن معنى الطبيعة الإنسانيّة والأقوال الصحيحة الّتي تقال عن هٰذه الطبيعة لكلّ هٰذا ليس عن جوهرٍ معيّنٍ للإنسان، بل بالأحرى عن الأفعال الجزئيّة لأفراد الناس الجزئيّة. وقد كان بيرس وجيمس في بعض كتاباتهما يأخذان الموقف التجريبيّ، وفي بعض

الأحيان يأخذون الموقف الاسميّ. [رشوان، مدخلٌ لدراسة الفلسفة المعاصرة، ص 44]

رابعًا: مبادئ البراغماتيّة وأسسها

هناك عدّة أسسٍ ومبادئ معرفيّةٍ وفلسفيّةٍ عملت عليها الفلسفة البراغماتيّة لتشيّد صرحها المعرفيّ، وهي عبارةٌ عن:

1- النزعة الفرديّة

تعدّ البراغماتيّة فلسفةً ذات نزعةٍ فرديّةٍ، إذ اهتمّت بالإنسان الفرد ووضعته في الاعتبار الأوّل؛ وذٰلك لأنّ الفرد حامل الفكر المبدع، وصانع العمل وصاحب تطبيقه [فرحان، دراساتٌ في فلسفة التربية، ص 114]؛ فلذا جعلت من الإنسان الفرد مصدرًا للقيم والمعرفة، ومعيارًا للحكم بالخير أو الشرّ. ويعلّل جيمس ذٰلك بقوله: «إنّ مصدر العلم الأخلاقيّ إنسانيٌّ بحتٌ؛ وذٰلك أنّ الإنسان هو الكائن الخلقيّ الوحيد في العالم؛ ولذا فالمعقول أن يكون مصدر الخير والشرّ والفضيلة والرذيلة أنّ الإنسان هو الخالق الوحيد للقيم في ذٰلك العلم، وليس للأشياء من قيمةٍ خلقيّةٍ إلّا باعتباره هو» [زيدان، وليم جيمس، ص 164].

2ـ التجريبيّة العلميّة

تعدّ الفلسفة البراغماتيّة تطويرًا للاتّجاه التجريبيّ العلميّ، ودفعًا به إلى نتائجه الطبعيّة [إسلامي، اتّجاهاتٌ في الفلسفة المعاصرة، ص 85]، ولٰكنّها تمثّله في شكلٍ أكثر تطرّفًا، وأقلّ ممانعةً فيه، واعتراضًا عليه، في نفس الوقت، كما يقول رائدها ويليام جيمس [انظر: جيمس، البراجماتيّة، ص

71]؛ وذٰلك لأنّها تجاوزت سلبيّات المناهج السابقة، وأخذت أفضل ما فيها لتكون منبعًا جديدًا يوجّهها للعمل، بدلًا من التأمّل في ظواهر الكون، فهي منهجٌ عمليٌّ انتقائيٌّ، يرفض الجمع بين المتناقضات عندما يدعونا للاختيار. [انظر: الكحلانيّ، فلسفة التقدّم، ص 98]

«كما أنّها تتّفق مع مذهب الاسميّة عندما تلجأ دائمًا للاصطفائيّة في التفاصيل الجزئيّة، وتتّفق مع مذهب النفعيّة في توكيدها للنواحي العمليّة، وتتّفق مع الفلسفة الوضعيّة في ازدرائها للحلول الكلاميّة، والأسئلة العديمة الجدوى، والتجريدات الميتافيزيقيّة» [جيمس، البراجماتيّة، ص 74].

بل إنّ البراغماتيّة ترفض النظر التأمّليّ، وتطلب التجربة بدلًا من الوقوف والتأمّل، فإنّ البراغماتيّ عند معالجته بعض الإشكاليّات بدلًا من أن يعالجها بالتأمّل المعجب، يقفز إلى الأمام في نهر الخبرة، إذ يعيش فيها كما تعيش الأسماك في الماء. [انظر: الكحلانيّ، فلسفة التقدّم، ص 98]

ويرى البعض أنّ هٰذا لا يعني رفضًا مطلقًا للتفكير، وإنّما للأفكار الّتي لا جدوى منها، إذ إن ويليام جيمس يدعو للتفكير، ولٰكن بشرط أن يكون هٰذا التأمّل لحظة استراحةٍ نضع من خلالها الفروض، ثمّ نعود بها إلى الواقع للتأكّد من صحّتها ونفعها. [المصدر السابق، ص 99]

وعلى هٰذا نرى أنّ البراغماتيّة تذهب للتجربة، وتنبذ الجمود والتأمّل، أو الحكم على الأشياء من دون سابق تجربةٍ لها؛ لأنّ التجربة لأيّة فكرةٍ هي المعيار الّذي من خلاله يتمّ الحكم على تلك الفكرة بالصدق أو الكذب، وهي بهٰذا تتّفق مع الفلسفة الوضعيّة الّتي تنكر وجود الحقائق أو القيم الّتي لم تستخدم التجربة، حتّى انتهى بها المطاف إلى أن تضحي بالقيم؛ إذ رفضت التسليم بالحقائق المطلقة والقضايا الميتافيزيقيّة (عالم الغيب). بينما نجد أنّ الفلسفة البراغماتيّة لا تتردّد في قبول الأفكار واعتبارها

صادقةً متى ما كانت مفضيةً لنفعٍ يتحقّق في حياة الناس. [الحجيليّ، البراجماتية.. عرضٌ ونقدٌ، ص 300؛ انظر: الطويل، مذهب المنفعة العامّة في فلسفة الأخلاق، ص 262]

3- تتبّع النتائج العلميّة

ويقصد بها أنّ الفكرة لا بدّ أن تكون قابلةً للتنفيذ، وأن يكون لدينا اعتقادٌ بإمكانيّة تطبيقها فعلًا، وأنّ الفكرة أو القضيّة الّتي ليست لها نتائج عمليّةٌ أو تأثيرٌ في السلوك هي قضيّةٌ أو فكرةٌ لا وجود لها. ولهذا المبدأ يتّضح من خلال تعريف البراغماتيّة، إذ إنّها مشتقّةٌ من الكلمة الّتي تعني العمل، بل إنّ معيار الصدق في البراغماتيّة لأيّة فكرةٍ إنّما يكمن فيما يترتّب عليها من نتائج عمليّةٍ. إذ حدّد مؤسّس البراغماتيّة بيرس منهجه بفكرتين رئيستين، هما: 1ـ أنّ الفكرة الحقيقيّة هي الّتي تجد طريقها إلى التطبيق العمليّ، وتقودنا إلى الهدف. 2ـ أنّ فكرتنا عن موضوعٍ ما، هي فكرتنا عن النتائج المترتّبة على الآثار العمليّة. [الحجيليّ، البراجماتيّة.. عرضٌ ونقدٌ، ص 301]

فالعمل إذن هو المعيار لصدق الفكرة وليس الوعي المجرَّد [الكحلانيّ، فلسفة التقدّم، ص 99]، كما أنّه يرى أنّ الفكرة لا بدّ أن تكون واضحةً، ثمّ لا بدّ أن نعتقد بإمكان تطبيقها فعلًا، وقد عبّر عن ذٰلك بقوله: «إنّ معنى الفكرة الّتي تعتقد في صحّتها هو ما أنت على استعدادٍ للقيام به من عملٍ إزاءها» [منصور، الفكر التربويّ المعاصر والبراجماتيّة، ص 75].

ويرى ويليام جيمس «أنّ المنهج البراغماتيّ يضع حدًّا لتلك النقاشات الميتافيزيقيّة الّتي لا تنتهي؛ وذٰلك لأنّه يفسّر كلّ فكرةٍ من خلال تتبّع واقتفاء نتائجها العمليّة، كلٌّ على حدةٍ» [الحجيليّ، البراجماتيّة.. عرضٌ ونقدٌ، ص 302].

4- القطيعة مع الماضي

ينطلق المنهج البراغماتيّ من المستقبل متجاهلًا الماضي، وجاعلًا الحاضر لحظة إعدادٍ لتحقيق برنامج تصنعه للمستقبل. فهٰذا المنهج يحدث قطيعةً مع الماضي، ويرفض البحث في المبادئ الأوّليّة، وفي كلّ أشكال المطلق، فلا يسأل عن كيفيّة نشوء الأفكار، ولا عن مصدرها، وإنّما يبحث عن نتائجها العمليّة الّتي يمكن أن تقودنا إلى تغيير الواقع نحو الأفضل. [الحجيليّ، البراجماتيّة.. عرضٌ ونقدٌ، ص 304؛ انظر: بوترر، العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ص 218 و219]

يقول ويليام جيمس: «إنّ البراغماتيّ يدير ظهره بكلّ عزمٍ وتصميمٍ، وإلى غير رجعةٍ، لعددٍ كبيرٍ من العادات الراسخة المتأصّلة العزيزة على الفلاسفة المحترفين. إنّه ينبئ بعيدًا عن التجريد، وعن عدم الكفاية، ويُعْرِض عن الحلول الكلاميّة، وعن التعليلات القبليّة الدرئيّة (السابقة على التجربة)، وعن المبادئ الثابتة، وعن ضروب المطلق والأصول المزعومة. وهو يولي وجهه شطر الاستناديّة، والمحسوسيّة، والكفاية، شطر الحقائق والوقائع، شطر العمل والأداء والمزاولة، وشطر القوّة» [جيمس، البراجماتيّة، ص 71].

فالفلسفة البراغماتيّة، استبدلت النظر إلى المستقبل بدل النظر إلى الماضي؛ لذا فهي لا تسأل كيف تنشأ المعرفة أو الأفكار، بقدر ما تسأل عن النتائج الّتي تترتّب على هٰذه الفكرة أو تلك في عالم الواقع. [انظر: إسلامي، اتّجاهاتٌ في الفلسفة المعاصرة، ص 86]

ويقول ويليام جيمس: «لنا الآن أن نقرّر بثقةٍ ويقينٍ أنّ الرغبة في تحديد المستقبل وفي تعيينه، تكون عنصرًا مهمًّا من عناصر الميول الفلسفيّة، وأنّ كلّ فلسفةٍ تتجاهل إشباع تلك الرغبة، ولا تعمل على ذٰلك، لا يمكن أن

تحوز قبولًا عامًّا، وبالتالي فإنّها فلسفةٌ متشائمةٌ» [جيمس، إرادة الاعتقاد، ص 51 ـ 52].

5- الوعي الواقعيّ

ينبغي على البراغماتيّ أن يكون صاحب وعيٍ شديدٍ وتنبّهٍ دقيقٍ عند مناقشة الأفكار وتجربتها، والتأكّد من صدقيتها، فهو لا يعبأ بالأفكار المجرّدة والمناقشات الّتي لا تلامس الواقع، ولا تدعو لتغييره، وإنّما ينظر للأفكار والنظريّات من خلال قدرتها على تغيير أسلوب حياتنا وصنع المستقبل، كما أنّه لا يقدّم حلولًا جاهزةً على غرار الفلسفات المثاليّة، بقدر ما يعدّ برنامجًا أو منهجًا للمزيد من العمل. [الحجيليّ، البراجماتيّة.. عرضٌ ونقدٌ، ص 307]

حيث يرى جون ديوي الّذي عرفت فلسفته بالفلسفة الذرائعيّة أو الأدائيّة أنّ الفكر ما هو إلّا أداةٌ من أجل العمل، ولا يبدأ الإنسان في التفكير إلّا حين يصطدم بصعوباتٍ مادّيّةٍ يكون واجبًا عليه التغلّب عليها، وبالتالي فإنّ الأفكار ليس لها إلّا قيمةٌ "أدائيّةٌ" أو "وسائليّةٌ" وحسب، من هنا جاءت تسمية مذهب ديوي بالذرائعيّة. [انظر: بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوربّا، ص 162]

فيعتبر العقل عند البراغماتيّ عبارةً عن أداةٍ لفهم العالم وتغييره، والنظريّات الفلسفيّة عبارةً عن وسائل تقودنا لإنجاز أهدافٍ نحدّدها في المستقبل. [انظر: الكحلانيّ، فلسفة التقدم، ص 105]

وعلى هٰذا الأساس يعدّ الفكر وسيلةً لكي يغيّر الإنسان كلّ ما يحيط به، وهو الّذي يأخذ بأيدينا للكشف عن حقائق الأشياء، بالاختبار والتجريب والتحقيق.

خامسًا: البرغماتيّة وأثرها في فهم القيم والنظم الدينيّة

من خلال ما مرّ علينا سابقًا من بحوثٍ تبيّن لنا أنّ الفلسفة البراغماتيّة لها معيارٌ في بيان صحّة الأعمال وقبولها، وذٰلك عن طريق النتائج المترتّبة عليها، بحيث أخضعت كلّ عملٍ لمبدإ المنفعة، فما يجلب منفعةً فهو المقبول، وما لا يجلب منفعةً فلا قيمة له، وجعلت الفلسفة البراغماتيّة النتائج المترتّبة من أيّ عملٍ معيارًا في حسن ذٰلك العمل أو قبحه، وطبّقوا هٰذا على الدين، فأصبح الدين نافعًا في بعض الأحيان إذا لم نستطع أن نستبدله بغيره؛ وذٰلك لأنّ معيار الصدق والحقيقة عندهم بالمقلوب، فمتى ما كان الحقّ نافعًا فهو حقٌّ، ومتى ما كان غير نافعٍ فهو ليس بحقٍّ، وسنبيّن هنا بعض الأمور الّتي كان لها الدور الأساسيّ في تبلور المعرفة الدينيّة في الفلسفة البراغماتيّة.

لقد ذكر مؤسّس الفلسفة البراغماتيّة تشارلز بيرس اعتقاده في الدين قائلًا: «إنّ فلسفتي يمكن وصفها بأنّها محاولة فيزيائيٍّ يصوّر بِنية الكون تصويرًا لا يتعدّى ما تسمح به مناهج البحث العلميّ، مستعينًا في ذٰلك بكلّ ما قد سبقني إليه الفلاسفة السالفون، لٰكنّني لن أصطنع في هٰذا طرائق الميتافيزيقيّين في الاستنباط الّذي يقيمونه على فروضٍ من عندهم، ويصلون به إلى براهين يصفونها بالصواب القطعيّ الّذي لا يتعرّض للتعديل في ضوء ما قد تكشف عنه البحوث العلميّة فيما بعد. كلّا، بل طريقتي هي طريقة العلم نفسها، وهي أن أقدّم صورةً للكون على سبيل الافتراض الّذي ينتظر الإثبات على أساس ما قد يتكشّف لنا من حقائق؛ ولذٰلك فهو يتميّز أوّل ما يتميّز بقابليته للصواب وللخطإ، وفق ما تقدّمه المشاهدة لنا بعدئذٍ من شواهد» [زكي نجيب محمود، من زاويةٍ فلسفيّةٍ، ص 204].

أما من حيث الاعتقاد فقد ذكر تشارلز بيرس في مقال له تحت عنوان

(تثبيت الاعتقاد): «إنّ خير الوسائل لهذا التثبيت هي المنهج العلميّ الّذي من شأنه أن يجعل صواب ما نعتقده أمرًا يشاهده كلّ الناس، فتخرج الفكرة من مجرّد كونها اعتقادًا ذاتيًّا عند أحد الأفراد لنجعلها حقًّا عامًّا للناس جميعًا، وبحيث يأتي تطبيقها في كلّ حالةٍ على صورةٍ واحدةٍ، وبهذا يكون لها معنًى واحدٌ عند الناس جميعًا، ولا يتغيّر معناها بتغيّر الأفراد أو الشعوب أو المكان أو الزمان، وهذه هي الطريقة الّتي يتفاهم بها العلماء» [كامل، أعلام الفكر الفلسفيّ المعاصر، ص 101].

وعلى هذا الأساس نرى أن ما ذهب إليه بيرس في إثبات الدين والعقيدة، هو عن طريق الوسيلة العلميّة، بحيث تصبح صحّة اعتقادنا أمرًا يشاهده كلّ من أراد المشاهدة، وعلى هذا الأساس لا يثبت الدين والعقيدة من خلال الحجج العقليّة أو اللفظيّة بين الناس، كما يناقشه الفلاسفة الميتافيزيقيّون فيما بينهم، بل يثبت من خلال الطريقة العلميّة الّتي تخرج الفكرة من مجرّد كونها اعتقادًا عند أحد الأفراد، فنجعلها ذات طابعٍ عامٍّ عند جميع الناس وبمعنًى واحدٍ.

وقد حاول ويليام جيمس أن يعالج المشكلة الدينيّة، من خلال حاجات الإنسان، فما يكون من صميم الدين على رأيه، هو الشعور الدينيّ، أو العاطفة الدينيّة، فليست العبرة بالطقوس والفرائض بل العبرة بالروح والديانة الشخصيّة الباطنية [بوترو، العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ص 245]، إذ يعدّ جيمس الدينَ أمرًا شخصيًّا ويرفض العموميّة، فنظره لا يهتمّ بالمعتقد بالأسس الّتي يقوم عليها، بل بالنتائج الّتي تنتج عن الدين وتبقى الصلة بالحياة؛ لأنّ كلًّا منّا يحيا وفق مزاجه الدينيّ. [المصدر السابق، ص 252]

وقد أقام جيمس المشكلة الدينيّة على موقفين أساسيّين وهما:

أوّلًا: حقّ الإنسان في الاعتقاد، فله كلّ الحرّيّة في أن يعتقد فيما يشاء وفي صياغة آرائه وأفكاره، فهو يترك الحقّ للإنسان في اختيار الجانب الّذي يحقّق له السعادة حتّى ولو كان على خطإٍ، المهمّ أن يكون سعيدًا في حياته وراضيًا بما يعيشه، ويدع كلّ شيءٍ للمستقبل، سواءٌ كان حكمًا صحيحًا أو خاطئًا.

ثانيًا: أنّ الأساس في الجانب الدينيّ هو الوجدان، فالوجدان يعدّ الوسيلة الوحيدة الّتي يثبت بها الدين في نفوس الناس وليس العقل.

فالإقرار بعقيدةٍ يعود إلى الوجدان والغريزة، أمّا بالنسبة للعقل فهو يشكّل مرحلةً ثانويّةً للمشكلة الدينيّة؛ لأنّ وظيفته هي تنظيم العقيدة أو التنسيق فقط. [ضياف أمال، الأساس الفلسفيّ للدين عند ويليام جيمس، ص 53 و54]

فمن خلال هٰذين الموقفين الأساسيّين للتجربة الدينيّة بيّن جيمس أنّ هناك عالمًا غير منظورٍ لا يمكن الوصول إليه عن طريق العقل، بل بالوجدان والغريزة، والّذي يؤكّد على وجوده بصفةٍ مؤكّدةٍ هو التجربة الإنسانيّة من خلال مجموعة التجارب الصوفيّة النفسيّة خلال التنويم المغناطيسيّ والعلاج الروحانيّ. [المصدر السابق، ص 54]

أمّا من حيث الاعتقاد يذهب ويليام جيمس إلى أنّ الاعتقاد هو المبدأ الّذي سبق الفعل، فنحن حينما نعتقد بصحّة فكرةٍ ما، يكون لنا دافعٌ قويٌّ من أجل تحقيقها، فالاعتقاد يتوقّف على إرادة المعتقِد، والإنسان لا يستطيع التفكير أو الحياة من دون الإيمان والاعتقاد، يقول ويليام جيمس: «الاعتقاد مجرّد فرضٍ ناجحٍ، وهو نفسه عاملٌ فعّالٌ من عوامل تحقيق ما نؤمن به أو نعتقد، وذٰلك مثل الاعتقاد بأمانة شخصٍ قد يكون هو الكفيل ببثّ روح الأمانة نفسه» [إبراهيم، دراساتٌ في الفلسفة المعاصرة، ص 40].

وعلى هٰذا الأساس فإرادة الاعتقاد تصنع مستقبل الإنسان، فهي تجعل في نفس الإنسان قدرةً على العمل وهٰذا العلم المرن والناقص يحتاج إلى نوعٍ من الإيمان والاعتقاد الّذي يوجد في الإنسان، ويمكّنه من أن يساهم في عمله وفي التغيّر. وبهٰذا فإنّ الاعتقاد سيكون عاملًا لتحقيق ما نؤمن به أو نريد الاعتقاد به، ويساعد على تحقيق ما نريد؛ كون العقل ليس مجرّدًا، بل محكومًا عليه بالرغبة أنّه يختار، فمن حقّنا أن نعتقد في شيءٍ يتخطّى حدود ما هو معروفٌ، فالإيمان يحقّق نفسه بنفسه. [منتهى عبد جاسم، سيكولوجية الدين عند ويليام جيمس، موقع الحوار المتمدن]

أمّا من حيث الأخلاق، فذهب ويليام جيمس أنّها تقوم على ثلاثة عناصر، وهي: الإلزام الخلقيّ، والتفاؤل الخلقيّ، وحرّيّة الإرادة الإنسانيّة، فهٰذه العناصر الثلاثة تكوّن رأيه في الأخلاق.

ففيما يخصّ الإلزام الخلقيّ، يرى جيمس أنّ علم الأخلاق إنسانيٌّ؛ وذٰلك لأنّه يرى أنّ الأخلاق تقوم في عالمٍ به كائناتٌ ـ لها مطالب ورغباتٌ وإحساساتٌ ومشاعر ـ هٰذه الكائنات هي بنو الإنسان. [زيدان، وليم جيمس، ص 182]

وبناءً على هٰذا يرى جيمس أنّ مصدر علم الأخلاق إنسانيٌّ بحتٌ؛ وذٰلك لأنّ الإنسان هو الكائن الأخلاقيّ الوحيد في هٰذا العالم؛ ولذا فالمعقول أن يكون الإنسان مصدر الخير والشرّ والفضيلة والرذيلة، وأنّ الخير خيرٌ بالنسبة له، والشرّ شرٌّ بالقياس إليه، ومن ثمّ أمكن لجيمس أن يقول: «إنّ الانسان هو الخالق الوحيد للقيم في ذٰلك العالم، وليس للأشياء من قيمةٍ خلقيّةٍ إلّا باعتباره هو» [محمود، حياة الفكر في العالم الجديد، ص 149].

وعندما وصل جيمس إلى أنّ الإنسان هو الوحيد الخالق للقيم، جعل مادّة بحث الفيلسوف الخلقيّ هي المثل المتحقّقة في هٰذا العالم، والتجارب

الفعلية الّتي يعانيها الأفراد ويقومون بأدائها، وينتهي من ذٰلك إلى أنّ الحسن ما رأى معظم الناس أنّه كذٰلك، والقبيح ما ينكره غالب الناس. [انظر: زيدان، وليم جيمس، ص 183]

أمّا من حيث التفاؤل الخلقيّ، فيرى جيمس أنّ الخير عبارةٌ عن إشباع مطالب الإنسان وتحقيق رغباته، وتحقّقه يكون بالنجاح، وأنّ الشرّ ليس أساسيًّا وعنصرًا من عناصر الكون، ولٰكنّه شيءٌ يمكن التغلّب عليه؛ لهٰذا يعلن جيمس أنّ التفاؤل والتشاؤم شيئان إنسانيّان، أي أنّ الإنسان إذا اعتقد بأنّ العالم خيرٌ وسلك في الحياة وفق اعتقاده هٰذا، فإنّ العالم يصبح خيرًا حقًّا. وإذا اعتقد بالتشاؤم أي أنّ العالم شرٌّ، وسلك وفق ذاك، فإنّ العالم يصبح شرًّا حقيقيًّا، وما يعيّن الخيريّة عند جيمس هو ملاءمة عالمنا للحياة الأخلاقيّة والدينيّة الناجحة. [انظر: جيمس، العقل والدين، ص 77]

وعلى هٰذا فإن الخير عند جيمس يقوم على إشباع مطالب الإنسان وتحقيق رغباته، وتحقيق الخير إنّما يكون بالنجاح في تجربةٍ من تجاربنا في الحياة، وكثيرًا ما نضطرّ إلى إتيان أفعالٍ دون أن يكون لدينا مسوّغٌ نظريٌّ لذٰلك. ومعنى هٰذا أنّ من حقّنا أن نعتنق مبدأً خلقيًّا أو معتقدًا دينيًّا لا يحملنا على اعتناقه تفكيرنا النظريّ المجرّد، بل تدعونا إلى اعتناقه مطالب الحياة ومقتضياتها؛ ولهٰذا فإنّ جيمس يرى أنّ الفعل الّذي يأتيه الفرد خيرًا يتحوّل عند صاحبه إلى سلوكٍ ناجحٍ في حياته، وخيريّته ـ أي الفعل ـ تتوقّف على تقدير صاحبه. ومن هنا ذهب جيمس إلى أنّ الفعل الفاضل هو الّذي يشبع عند صاحبه رغبةً أو يحقّق له منفعةً، ومقدارها يكون بمقدار حظّه من الخير. [الطويل، الفلسفة الخلقيّة، ص 273]

أمّا الشرّ عند جيمس فهو القضيّة الّتي لم يستطيع أن يجد لها تفسيرًا، فانتابته حالةٌ انطوائيّةٌ أدّت به إلى تناقضٍ نفسيٍّ، وهٰذا التناقض أدّى به إلى

حالٍ من القلق، فمن قوله بوجود إلٰهٍ محبٍّ للإنسان التفت إلى فكرةٍ أخرى تصوّر القوّة الباطنة الجبّارة الّتي لا تحبّ ولا تعطي، وإنّما تطوي الأشياء طيًّا بلا قصدٍ ولا غرضٍ، وتقذف بها جميعًا وباختصارٍ إلى مصيرٍ واحدٍ محتومٍ [انظر: جيمس، إرادة الاعتقاد، ص 118]، وهي فكرةٌ تؤدّي إلى خوفٍ وفزعٍ شديدين. إنّ نظرية جيمس هي النظريّة القائلة بإمكانيّة التحسّن أو التحوّل إلى الأفضل، وهو بهٰذا يقف موقفًا وسطًا بين مذهبي التفاؤل والتشاؤم؛ لأنّ العالم عنده ليس خيرًا في ذاته وليس شرًّا في ذاته، وإنّما يمكننا أن نحمله خيرًا بمكافحتنا الشرّ الّذي فيه. [انظر: جيمس، العقل والدين، ص 130]

وعلى هٰذا فالأخلاق عند جيمس يصنعها الإنسان، ليست خاضعةً لقوّةٍ عليا، حتّى التفاؤل عنده شيءٌ يصنع، وذٰلك بمكافحة الشرّ في هٰذه الحياة. وبذٰلك تكون الأخلاق عند جيمس مرتبطةً بالحقيقة؛ لأنّ الحقيقة عنده شيءٌ يصنع. [مجموعةٌ من الأكاديميّين العرب، الفلسفة الغربيّة المعاصرة، ج 1، ص 49]

وأمّا بالنسبة لحرّيّة الإرادة، فإنّ جيمس يؤمن بأنّ الإنسان مختارٌ في أفعاله، وليس مجبرًا عليها. فافترض أنّ الإنسان حرّ الإرادة، وطلب منه أن يسلك كما لو كان الافتراض صحيحًا، ويقول: إنّ الإنسان سيجد نفسه حينئذٍ حرّ الإرادة، وأنّه يستطيع خلق أفعالٍ جديدةٍ. [انظر: زيدان، وليم جيمس، ص 187]

يقول جيمس: «الغايات الوحيدة الّتي تنشأ عن إرادتنا يبدو أنّها حركاتٌ جسميّةٌ؛ ولذا نبدأ من الحكم بأنّ الآثار الخارجيّة المباشرة الوحيدة لإرادتنا همي حركاتٌ جسميّةٌ، ويجب أن تكون الحركات الإراديّة وظائف ثانويّةً للكائن العضويّ لا وظائف أوّليّةً» [المصدر السابق، ص 188].

يرى جيمس أنّ البحث في حرّيّة الإرادة قائمٌ على البحث في التفرقة بين الجبر والاختبار، وجوهر المشكلة بين الجبر والاختيار هو الإمكان، وليس له معنى عند جيمس سوى أنّ الصدفة قائمةٌ. يقول جيمس: «وإذا قلت: إنّ للصدفة وجودًا حقيقيًّا فلست جادًّا في ذٰلك. لسنا متأكّدين من أنّنا في عالمٍ به صدفةٌ أو ليست به، ولٰكن يبدو لي أنّه كذٰلك. أنا أريد عالم الصدفة، قل فيها ما تشاء، لٰكنّي أرى أنّ الصدفة لا تعني أكثر من التعدّد، فإذا تشبّثت بعالمٍ كاملٍ فإنّي لا أزال أعتقد أنّ عالمًا به صدفةٌ أفضل وأحسن من عالمٍ ليست به» [المصدر السابق، ص 193].

وكذلك تعرّض جون ديوي للدين، وذٰلك من خلال مذهبه الّذي يصفه البعض بأنّه "مذهبٌ طبيعيٌّ"، وهو مذهبٌ ينفي وجود ما فوق الطبيعة؛ ولهٰذا السبب هاجمه المتديّنين من الكاثوليك الّذين كانوا يعادون المذهب الطبيعيّ [الأهوانيّ، نوابغ الفكر الغربيّ (جون ديوي)، ص 139]، إذ رفض الميتافيزيقيا باعتباره فيلسوفًا طبيعيًّا، متّبعًا منهج الفلاسفة الطبيعيّين من بيكون وسبنسر (Herbert Spencer) وغيرهم، فهو يعتقد أنّ مشكلة الفلسفة تكمن في اختلاط أبحاثها بالأبحاث الدينيّة [انظر: الحاجّ، الموسوعة الميسّرة في الفكر الفلسفيّ والاجتماعيّ، ص 246]، وكان سبب هجومه على المعرفة الميتافيزيقيّة يرجع إلى سببين:

الأوّل: هو أنّ التفكير الميتافيزيقيّ لا يبدي أيّ اهتمامٍ في واقع الأمر من حيث سيطرة الإنسان على الطبيعة سيطرةً عاقلةً.

والثاني: أنّ التفكير الميتافيزيقيّ لا يهتمّ كثيرًا ببعض الأمور، وهٰذا حسب رأيه يؤثّر في تقدّم البحث العلميّ، ويغلق عقول الناس عن معرفة ما في العلم الطبيعيّ من إمكاناتٍ كامنةٍ. [انظر: جوناثان ري، الموسوعة الفلسفيّة المختصرة، ص 151]

وقد فرّق ديوي بين الدين والتديّن، فالدين عنده قوّةٌ عليا غير منظورةٍ، من قبيل الغيب، وما كان كذٰلك فلا سبيل لنا إلى معرفةٍ، وإنّما نحن نعرف أشخاصًا متديّنين، لهم تجارب دينيّةٌ، ويبدو في سلوكهم مظاهر خاصّةٌ من أداء شعائر وطقوسٍ. والتديّن هو عبارةٌ عن ظاهرةٍ اجتماعيّةٍ خاضعةٍ للثقافة أو الحضارة، فكلّ إنسانٍ يولد في مجتمعٍ له دينٌ وطقوسٌ خاصّةٌ به. [انظر: الأهوانيّ، نوابغ الفكر الغربي (جون ديوي)، ص 139 و140]

ويذهب ديوي أيضًا إلى أنّ «المثل الأعلى في المجتمع الديمقراطيّ هو أن يتعاون البشر فيما بينهم، كما يفعل العلماء في المعمل إزاء مشكلةٍ معيّنةٍ، وهٰذا التعاون هو الدين في جوهره، فالإيمان الحقّ إنّما هو إيمانٌ بالكشف عن الحقيقة الّتي تحلّ ما يعترض الإنسان من صعابٍ، فالإيمان الحقّ هو الإيمان بمنهجٍ يساير التفكير، ويساير الحياة العمليّة مسايرةً تعمل على ازدهار تلك الحياة ورخائها، لا إيمان بحقيقةٍ ثابتةٍ عرفناها بالوحي معرفةً لا تقبل التغيير ولا النمو» [محمود، حياة الفكر في العالم الجديد، ص 177]. «والله هو هٰذه العلاقة بين الإنسان ومثله العليا، يحاول تغيير الحياة على مقتضاها» [المصدر السابق، ص 177]، وعلى هٰذا الأساس فليس للدين مثلٌ عليا خاصّةٌ به، ولا منهجٌ خاصٌّ به، بل هو عبارةٌ عن مواجهة المشاكل وحلّها عن طريق التعاون بين أفراد المجتمع الواحد.

وفي مجال القيم الأخلاقيّة يذهب ديوي إلى أنّ الفرد يكتسب قيمه الأخلاقيّة وضميره الأخلاقيّ عن طريق خبرته وتفاعله مع البيئة المحيطة به، مثلها في ذٰلك مثل بقيّة معارفه الّتي يكتسبها عن طريق الخبرة، إضافةً إلى ذٰلك إيمانه بأنّ القيم الأخلاقيّة أو الأخلاقيّات هي أخلاقٌ اجتماعيّةٌ لا تنبع من الذات أو الضمير أو العقل، ولٰكنّها تكتسب نتيجةً لتفاعل الفرد أو أعماله بأنّها أخلاقيّةٌ إذا ما ساعدت على النموّ الكامل للفرد، وعلى

النهوض بالمجتمع، وحلّ مشاكله، وتحقيق المصلحة العامّة. [الشيبانيّ، تطوير النظريّات والأفكار التربويّة، ص 344 و345]

فعلى هٰذا الأساس تكون القيم الأخلاقية عنده متعددة بتعدد الأفراد، ويكتسبها الفرد حسب تفاعله مع البيئة الّتي يعيش فيها، وهٰذا بدوره يؤدي إلى النسبية في الأخلاق.

سادسًا: نقد مبادئ وأسس البراغماتيّة

بعد عرض المنهج الّذي قامت عليه الفلسفة البراغماتيّة في تشييد صرحها المعرفيّ، ومدى تأثير هٰذا المنهج في المعرفة الدينيّة، تبيّن أنّ هٰذه الفلسفة فيها الكثير من المشاكل المعرفيّة الّتي تؤدّي إلى أن يكون الإنسان هو المحور في هٰذا العالم بمعزلٍ عن البعد الماورائيّ، وأنّ هدف الإنسان هو الحصول على أكبر رصيدٍ من المنفعة ولو على حساب هدم القيم؛ لأنّ الصدق يدور مدار المنفعة لا مدار الواقع، فهٰذا الأمر جعلنا نورد عدّة نقودٍ على المبادئ المعرفيّة الّتي بنت البراغماتيّة فلسفتها عليها، وهي عبارةٌ عن:

1ـ أنّ التجربة وحدها لا تكفي في إعطاء قضيّةٍ عامّةٍ وشاملةٍ، وأنّ العلوم التجريبيّة ينبغي أن تقف عند حدّها الّذي يشمل عالم المحسوسات فقط، وأنّ البعد الميتافيزيقيّ لا يمكن إثباته بالمنهج التجريبيّ أو نفيه؛ لأنّ القضايا التجريبيّة تحتاج إلى البرهان العقليّ، في إثبات صدقها أو عدم صدقها، وتعميم التجربة العلميّة في جميع العلوم أمرٌ غير صحيحٍ؛ لأنّ المنهجيّة في كلّ علمٍ تتبع موضوعات ذٰلك العلم، فلا بدّ أن تكون هناك سنخيّةٌ بين المنهج والموضوع.

2ـ أنّ نفس الفلسفة البراغماتيّة فلسفةٌ عقليّةٌ تحليليّةٌ ميتافيزيقيّةٌ؛ لأنّها تجعل معيار الصدق والكذب في القضايا، مع أنّها ترفض المنهج

الميتافيزيقيّ في بنائها المعرفيّ، وكذٰلك هي تناقض نفسها في القول إنّ كلّ قضيّةٍ لا بدّ أن تخضع لمعيار الفائدة والمنفعة، فنسأل هل هٰذه الفلسفة قد خضعت لهٰذا المعيار أم لا؟ وبدورها تنفي القيم الّتي لم تستخدمها التجربة، فتذهب إلى الفصل بين الواقعيّة والقضايا القيميّة، فتجعل كلّ شيءٍ يخضع للتجربة فله قيمةٌ وإلّا فلا، ونحن نرى أنّ الكثير من المسائل القيميّة الأخلاقيّة لا يمكن إخضاعها للتجربة العلميّة؛ لأنّ الأخلاق أمرٌ ثابتٌ وواقعيٌّ غير متغيّرٍ، وأنّ التجربة العلميّة دائمًا في معرض التغيّر والتبدّل.

3ـ لقد ذهبت البراغماتيّة إلى أنّ معيار الصدق في القضايا هو ما تنتجه الفكرة من فائدةٍ عمليّةٍ، بغضّ النظر عن الواقع، ونحن نرى أنّ الحصول على الفوائد العمليّة من كلّ قضيّةٍ مستندةٌ إلى الواقع، فكيف تكون هناك ثمرةٌ علميّةٌ واقعيّةٌ غير معتمدةٍ على الواقع؟! وعلى هٰذا الاساس أنّ كلّ علمٍ ليس فيه ثمرةٌ ونتيجةٌ وفائدةٌ فهو كاذبٌ، وإن كان مطابقًا للواقع، وكلّ علمٍ ينفع ويفيد وفيه ثمرةٌ فهو صادقٌ وإن كان مخالفًا للواقع.

4ـ أنّ من أهمّ المبادئ الّتي نادت بها البراغماتيّة هو القطيعة مع الماضي، وأنّ على البراغماتيّ أن يولّي ظهره بكلّ عزمٍ وتصميمٍ وإلى غير رجعةٍ لعددٍ كبيرٍ من العادات الراسخة المتأصّلة، العزيزة على الفلاسفة المحترفين. [انظر: جيمس، البراجماتيّة، ص 71]

وفي الوقت نفسه نجد أنّهم ينطلقون في أفكارهم من منطلقاتٍ فلسفيّةٍ قديمةٍ نادى بها كبار الفلاسفة، فهٰذا الفيلسوف بروتاغوراس يقول في قاعدته المشهورة "الإنسان مقياس الأشياء جميعًا"، وهو نفس المبدإ البراغماتيّ الّذي يجعل الحقيقة نسبيّةً، وتختلف من شخصٍ لآخر، بحسب ما تحقّقه له من فائدةٍ ونفعٍ، كما ساهم أبيقور (341 ـ 270 ق . م.) وتلاميذه في الابتعاد عن القول التقليديّ بالصدق المطلق أو الحقيقة

المطلقة؛ ذٰلك أنّ الحقيقة الفلسفيّة بالنسبة لهم هي تلك الّتي تحقّق وظيفةً عمليّةً لإصلاح حال المعتقد بها. كما أنّ الفلاسفة أوغسطين (Augustin) ودانز سكوت (Duns Scotus) وبيكون وكوبر نيق (Nicolaus Copernicus) وجاليليو (Galileo) قد ساهم كلٌّ منهم بنصيبه في مجال الملاحظة والتجربة، الّتي هي أساس المذهب البراغماتيّ، ولم يكن أحدٌ منهم براغماتيًّا. [انظر: الحجيلي، البراجماتيّة.. عرضٌ ونقدٌ، ص 310 و311]

وبهٰذا نجد أن الفلسفة البراغماتيّة تناقض نفسها في البعد عن الماضي والادّعاء بالجِدَّة والحداثة، وفي الوقت نفسه تكرّر أقوال فلاسفةٍ قدامى وتتبنّى آراءهم، ممّا يؤكّد أنّها في حقيقتها مجرّد إعادةٍ للنظرة الرواقيّة القديمة الّتي ينادي مؤسّسوها بمتابعة الفطرة، والعيش وفق الطبيعة، باعتبار أنّ الدساتير والنظم الاجتماعيّة إنّما هي من وضع الإنسان وصنعه لا غير. [المصدر السابق، ص 311 و312]

وعلى هٰذا تعتبر الفلسفة البراغماتيّة، من دعاة النسبيّة؛ بمعنى أنّ أيّ قضيّةٍ من القضايا لها أثرٌ ونتائج لشخصٍ ويفقدها شخصٌ آخر، أو في فترةٍ من الزمن لها أثرٌ وفي فترةٍ أخرى لا أثر لها. ومن قال بالنسبيّة فقد أنكر الواقع وقال بالسفسطة.

5ـ تسعى الفلسفة البراغماتيّة إلى تحقير المباحث العقليّة الميتافيزيقيّة، وتعتبرها مسائل تافهةً لا فائدة عمليّة منها، والفيلسوف يقول هناك الكثير من المسائل الفلسفيّة والقضايا الميتافيزيقيّة لها آثارٌ عمليّةٌ في حياة الإنسان بصورةٍ غير مباشرةٍ. وعليه فالفلسفة البراغماتيّة تخالف العقل الفلسفيّ البرهانيّ، وتنفي الجوهر وتركّز على الأعراض، ومن نفى الجوهر قال بجوهريّة جميع الأعراض.

6ـ تسعى الفلسفة البراغماتيّة في المعرفة الدينيّة إلى إخضاع الدين للتجربة، وهٰذا بدوره يؤدّي إلى الشكّ في صحّته، فالمسائل الدينيّة والأوامر الإلٰهيّة لا يمكن إخضاعها للتجربة حتّى نتعرّف على صحّتها وعدم صحّتها.

7ـ تركّز البراغماتيّة على محوريّة الإنسان وفرديّته في الكون بمعزلٍ عن الله تعالى، وأنّ مصالح الفرد مقدّمةٌ على المصالح الاجتماعيّة، حيث تبالغ البراغماتيّة في احترام حرّيّة الإنسان الفرديّة وتقديمها على القيم الدينيّة والأخلاقيّة، ممّا أدّى إلى انتشار الإباحيّة والرذيلة في المجتمع، وبدوره يؤدّي إلى التنافر بين الناس وعدم انسجامهم في سلك المجتمع؛ لأنّ كلّ فردٍ سينتقي لنفسه الرأي الّذي ينفعه بغضّ النظر عمّا يتّخذ سواه من آراءٍ، فهي فلسفةٌ تعتمد على مزاج الإنسان ومنفعته الشخصيّة، بغضّ النظر عن الواقع والقيم الأخلاقيّة.

8ـ أنّ تركيز البراغماتيّة على عامل المنفعة يفتح الباب لتطبيق شريعة الغاب، فالقويّ يهيمن ويسطر على الضعيف، واللص والقاتل سيكون ناجحًا في حياته ما دام يحقّق المكاسب من تلك الجرائم، وسيمكن التبرير لافتعال الحروب والدمار من أجل الحصول على مكاسب أكثر.

سابعًا: ويليام جيمس (William James) ومنهجه البراغماتيّ

لقد أراد ويليام جيمس بالفلسفة البراغماتيّة أن يقف موقفًا وسطًا بين المذهب التجريبيّ والمذهب العقليّ، ولٰكنّه رأى كليهما يهمل جانبًا معيّنًا من جوانب الطبيعة البشريّة؛ لاحظ أنّ المذهب التجريبيّ شديد الإخلاص للوقائع الجزئيّة والأشياء المحسوسة، شديد الاهتمام بالمشاهدات والتجارب، وهٰذا فضله الكبير، لٰكنّه مهملٌ للقيم الخلقيّة والدينيّة للإنسان. فللإنسان مطالب وحاجاتٌ ورغباتٌ طبيعيّةٌ كطلب الإيمان

وحاجته إلى الحرّيّة والأمل والرضا والتفاؤل، ورغبته في تحصيل الخير والسعادة، كما لاحظ أنّ المذهب العقليّ يفي بهٰذه الحاجات الروحيّة للإنسان، لٰكنّه يتنكّر للوقائع الجزئيّة والأشياء التجريبيّة. إذ رأى أنّ هٰذين الاتّجاهين يوقعان الفيلسوف في مأزق اختيار أحدهما، وأنّ الإنسان لا يستطيع تفاديهما معًا أو الجمع بينهما. ومن هنا اتّخاذ موقفٍ وسطٍ بين هٰذين الاتّجاهين يحقّق الإخلاص للواقع والتجربة، ويعطيه الإيمان بالقيم الروحيّة في الوقت نفسه، فنادى بالمذهب البراغماتيّ. وإنّ المذهب البراغماتيّ في المطلبين معًا يحتفظ بالدين كالعقليّين، ويحتفظ بالإخلاص العميق للوقائع كالتجريبيّين.

ولقد أعلن أوّل أمره أنّ الفلسفة البرغماتيّة منهجٌ وليست مذهبًا فلسفيًّا؛ وقصد جيمس من المنهج أنّه اتّجاهٌ فحسب، اتّجاهٌ إلى توضيح الأفكار، وإعطاء دلالاتٍ صادقةٍ لتصوّراتنا وقضايانا، ورأى أنّه يحلّ ـ بهٰذا المنهج ـ كلّ المناقشات الفلسفيّة، وذٰلك بمتابعة مبدإ بيرس البراغماتيّ، الّذي يقتضي أن ينحصر معنى التصوّر في نتائجه العمليّة وآثاره الحسّيّة، وأنّ الخلاف بين تصوّرٍ وآخر هو الخلاف في واقعةٍ محسوسةٍ نتج عن أيٍّ منهما، أو نتيجةٍ سلوكيّةٍ يؤدّي إليها أحدهما. [عويضة، وليم جيمس رائد المذهب البراغماتيّ، ص 54 و55]

لقد وضع جيمس قاعدتين أساسيّتين لمنهجه هما:

القاعدة الأولى: إذا كان لديك قضيّتان واعتقدت بصدقهما معًا، فانظر إلى أثر كلٍّ منهما على سلوكك العمليّ؛ إن اختلف سلوكك نتيجة اعتقادك بالقضيّة الأولى عن السلوك الناتج عن اعتقادك بالقضيّة الثانية، إذن فالقضيّتان مختلفتان حقًّا، وإذا لم يوجد خلافٌ عمليٌّ بينهما، بمعنى أنّه لم يوجد خلافٌ في السلوك نتيجة اعتقاد الفرد بكلٍّ منهما، فتأكّد أنّهما

قضيّةٌ واحدةٌ بصورتين لفظيّتين مختلفتين.

القاعدة الثانية: إذا لم يوجد أيّ أثرٍ عمليٍّ في سلوكك نتيجة اعتقادك بصدق قضيّةٍ ما، يختلف عن سلوكك نتيجة اعتقادك بكذبها، فاعتبر أنّ هٰذه القضيّة لا معنى لها، بل لا وجود لها؛ إذ إنّ دلالة الفكرة فيما ينتج عنها من أثرٍ في السلوك. [المصدر السابق، ص 55 و56]

يقول إنّ المنهج البراغماتيّ هو منهجٌ يضع حدًّا للمناقشات الميتافيزيقيّة الّتي لا تنتهي، وطريقةً لحسمها واستبعادها خارج دائرة المعرفة، مثل تلك القضايا: هل العالم واحدٌ أم متعدّدٌ؟ مسيّرٌ أم مخيّرٌ؟، مادّيٌّ أم روحيٌّ؟ [جيمس، البراجماتيّة، ص 63 و64]

1- نظريّة المعرفة

تعدّ نظريّة ويليام جيمس في المعرفة نظريّةً تجريبيّةً؛ لأنّه كان يعالج كلّ مشكلةٍ معرفيّةٍ علاجًا يقوم على التجربة الجزئيّة المحسوسة، رافضًا كلّ تفسيرٍ عقليٍّ ومحاولًا سدّ الثغرات الّتي لم يستطع التجريبيّون السابقون أن يملؤوها. وكما تساءل جون لوك يومًا ما عن مصدر المعرفة وممّ نستقي معرفتنا، وقال سأجيب بكلمةٍ واحدةٍ هي التجربة، فقد أجاب ويليام جيمس عن هٰذا السؤال بكلمتين هما: الفهم المشترك، إنّه مصدر معرفتنا. [عويضة، وليم جيمس رائد المذهب البراغماتيّ، ص 71 و72]

إذ رأى أنّ الفهم المشترك ـ في تصور الرجل العاديّ ـ هو الحكم الصائب والحذق أو البراعة في القول أو في العمل، أمّا الفيلسوف فإنّه يتصوّره على أنّه استخدام تصوّراتٍ ذهنيّةٍ معيّنةٍ، وهٰذه التصوّرات ضروريّةٌ لنا؛ لأنّها هي الّتي ترتب انطباعاتنا الحسّيّة المختلفة. ويذكر جيمس من هٰذه التصوّرات أو المقولات: الأشياء، المتشابه والمختلف، الأنواع، العقول،

الأجسام، الزمن، المكان، الموضوع والمحمول، العلّيّة، الخيال، والواقع. ولم يبحث جيمس في هٰذه المقولات بحثًا دقيقًا كما فعل أرسطو أو كانط (Immanuel Kant)، ولٰكنّه أراد منها أن تكون قوالب لا يستطيع أن يتكلّم الرجل العاديّ أو يفكّر بدونها، ويتتبّع جيمس نشأتها فيجد أنّها أساس تفكير الإنسان من قديم الزمن، ولا يزال يعتقد بها معظمنا حتّى اليوم؛ إنّنا لا نزال نعتقد بوجود الأنواع والعلّيّة والزمان والمكان كحاملين للوقائع والحوادث، وبأنّ للإنسان عنصرين هما النفس والبدن ونحو ذٰلك من تصوّراتٍ. إنّها تصوّراتٌ متأصّلةٌ في نفوسنا؛ لأنّها نافعةٌ لنا تخدمنا في أغراضنا العمليّة، سواءٌ في مجال الحديث أو في التفكير، ويقرّر جيمس بصدد مصدر هٰذه التصوّرات أنّ الإنسان الأوّل كان قد اكتشفها ثمّ صاغها فلاسفةٌ وعلماء صياغةً دقيقةً مثل ديمقراط (Democritus) وباركلي (George Berkeley) وداروِن (Charles Robert Darwin) وانتقلت هٰذه المقولات من جيلٍ لآخر ، وأصبحت عقائد مستقرّةً، نسمّيها عقائد الفهم المشترك. ولم يكن جيمس يعتقد أنّ مرحلة الفهم المشترك في المرحلة الوحيدة في تحديد المعرفة الإنسانيّة، وإنّما كان يرى أنّه توجد إلى جانبها مرحلتان أخريان هما: مرحلة العلم، ومرحلة النقد الفلسفيّ. [المصدر السابق، ص 72 و73]

وهنا يطرح سؤالٌ: هل يفضّل وليم جيمس عقائد الفهم المشترك على ما يضعه أمامنا العلم والفلسفة؟ يقول ويليام جيمس: «هٰذا بأنّه لا يمكن القول بأنّ نموذجًا ما من التفكير صادقٌ صدقًا مطلقًا دون النماذج الأخرى؛ وذٰلك لأنّ الفهم المشترك ـ كنحوٍ من التفكير ـ صالحٌ لميدانٍ من ميادين الحياة، والعلم صالحٌ لميدان آخر، والنقد الفلسفيّ ميدانٌ ثالث. أيّها أصدق صدقًا مطلقًا؟ سؤالٌ لا يعلم جوابه إلّا الله، بل إنّه لا يوجد فرضٌ أصدق من آخر،

بمعنى أنّه نسخةٌ مطابقةٌ للواقع؛ إذ إنّ الحقيقة الوحيدة هي الواقع نفسه» [زيدان، وليم جيمس، ص 60]. ويقول جيمس في موضوعٍ آخر: «إنّ الفهم المشترك أكثر المراتب إحكامًا وتماسكًا» [المصدر السابق، ص 60]

وممّا سبق نجد أنّ ويليام جيمس يقدّر عقائد الفهم المشترك، ويجعلها مصدر معرفتنا، ولٰكنّه متردّدٌ في الأخذ بها على نحوٍ مطلقٍ. والسبب في ذٰلك راجعٌ إلى أنّ التجربة في تجددٍ مستمرٍّ، وتغيّرٍ وتطوّرٍ وخلقٍ دائمٍ. ويعتقد جيمس أنّ معرفتنا لا تتكوّن دفعةً واحدةً، وإنّما تبدأ ناقصةً، وإنّنا نكتسبها بالتدريج وإنّنا نعمل على إتمام ما بها من نقصٍ باستمرارٍ. وما دامت التجربة مصدر ثقتنا، فيجب أن لا تهمل التجارب الجديدة والوقائع الّتي تمرّ علينا. وينبغي أن نقوم دائمًا بعمليّة جردٍ في مخزننا القديم. إنّ التجارب الجديدة لا تتّفق والمستودع القديم (معارفنا القديمة) من عقائد وآراءٍ، بل قد تعارضه وقد نكتشف بتجربةٍ جديدةٍ أنّ بعض أجزاء المستودع معارضٌ لبعضٍ، ومن هنا يشعر الإنسان بالقلق وبالحاجة إلى الخروج منه، ووسيلته إلى ذٰلك هو التوفيق بين القديم والجديد. [المصدر السابق، ص 60 و61]

ويشير جيمس إلى أنّ التوفيق بين القديم والجديد يكون على أنّ التغيير في المعارف القديمة في حدودٍ ضيّقةٍ، فيقول: «إنّا نرمّم ونصلح ونجلو الصدى أكثر ممّا نهدم أو نجدّد» [المصدر السابق، ص 61]. وعلى هٰذا الأساس نستطيع القول إنّ المعرفة عند ويليام جيمس معرفةٌ ذاتيّةٌ فرديّةٌ تجريبيّةٌ، وهٰذه هي النسبيّة.

2- الحقيقة أو الصدق

لقد عرض جيمس نظريّة الحقيقة الخاصّة بمذهبه في كتابه "البراجماتيّة"

في مقالٍ تحت عنوان "معنى الحقيقة". حيث ذهب إلى أنّ العلاقة الّتي تحصل بين فكرةٍ أو رأيٍ أو عقيدةٍ وبين موضوعاتها، وهي ما يبنى على أساس الاتّفاق مع الواقع، فيقول: «الحقيقة صفةٌ أو خاصّيّةٌ لبعض أفكارنا، فهي تعني اتّفاقها مع الواقع تمامًا مثلما يعني الباطل اختلافها معه» [جيمس، البراجماتيّة، ص 351].

وعلى هٰذا الأساس فإنّ الحقّ عند جيمس هو مدى اتّفاق الفكر مع الواقع الّذي تتّفق معه الفكرة أو تختلف.

فليس الحقّ صفةً آسنةً راكدةً لاصقةً للعبارة الّتي نصفها بهٰذا الوصف، بل هو قابليّة العبارة لأن تكون أداةً للسلوك وخطّةً للعمل، فإن كان فيها ما يهدينا إلى العمل الناجح فهي حقٌّ وإلّا فهي باطلٌ. [مجموعةٌ من الأكاديميّين العرب، الفلسفة الغربيّة المعاصرة، ج 1، ص 41]

وكما يقول جيمس: «إنّ الحقّ هو ما كان الاعتقاد فيه أفضل من أنكاره، أفضل بالنسبة إلى طرائق سلوكنا في الحياة العمليّة الواقعة» [محمود، حياة الفكر في العالم الجديد، ص 147].

ومعنى هٰذا أنّ الحقّ يقوم فيما هو مفيدٌ ونافعٌ للفكر، والمقصود بمفيدٍ: أنّه مفيدٌ بأيّة طريقةٍ، مفيدٌ في غاية الأمر في المجموع؛ لأنّ ما هو مفيدٌ للتجربة المقصودة الآن لن يكون كذٰلك بالضرورة، وبنفس الدرجة بالنسبة إلى تجارب لاحقةٍ؛ لأنّ التجربة لها أحوالها الخاصّة بها في تجاوز الحدود. فالحقيقة عند جيمس ليست مجرّد نسخةٍ مطابقةٍ لما قد كان أو ما هو كائنٌ، بل هو يرى أنّ الحقيقة تنبئ بما سيكون، أو هي على الأصحّ تعدّ فعلنا لما سوف يكون. [مجموعةٌ من الأكاديميّين العرب، الفلسفة الغربيّة المعاصرة، ج 1، ص 41]

فالصدق يحدث للفكرة، وهٰذا الصدق ذاته يتولّد من الأحداث؛ لأنّ

صحّة الفكرة مرهونةٌ بحادثٍ أو عملٍ، يقول جيمس: «إنّ الأفكار الصحيحة هي تلك الأفكار الّتي نستطيع هضمها وتمثيلها ودمغها بالمشروعيّة وتعزيزها وتوثيقها وإقامة الدليل عليها، والأفكار الخاطئة هي تلك الّتي لا نستطيع ذٰلك معها. هٰذا هو الفرق العمليّ الّذي يحدث لنا إذا كانت لدينا أفكارٌ صحيحةٌ. ومن ثمّ فهٰذا هو معنى الحقيقة؛ لأنّ ذٰلك هو كلّ ما نعرفه عن الحقيقة» [جيمس، البراجماتيّة، ص 352].

وإذا كان الحقّ عند جيمس يعني اتّفاق الفكر مع الواقع، فالحقّ هو ما يعيننا على المرور في هٰذا الواقع والسير فيه وتشكيله والسيطرة عليه. فليس يعنينا أن ننظر إلى العالم أو الواقع كما هو، ونتأمّله بذهننا أو نرسم صورةً مطابقةً له، ولٰكن ما يعنينا هو التغلّب على المشاكل الّتي تواجهنا والسيطرة على قدراتنا؛ ولذا فالمقياس هو ما ينتج من آثارٍ نافعةٍ تجعلنا نشبع رغباتنا، ونحقق طموحاتنا وأهدافنا؛ لذا فالحقّ هو المفيد، والمفيد الّذي يساعدنا في أساليب حياتنا. ومن ثمّ يمكننا أنّ نقول عن هٰذه الفكرة إنّها صادقةٌ لأنّها نافعةٌ أو إنّها نافعةٌ لأنّها صادقةٌ، فهاتان القضيّتان معًا تحملان على الدقّة المعنى نفسه [مجموعةٌ من الأكاديميّين العرب، الفلسفة الغربيّة المعاصرة، ج 1، ص 42] أو كما يقول جيمس: «إنّ الحقيقيّ في أوجز عبارةٍ ليس سوى النافع الموافق المطلوب في سبيل تفكيرنا تمامًا، كما أنّ الصواب ليس سوى الموافق النافع المطلوب في سبيل مسلكنا». [جيمس، البراجماتيّة، ص 353]

فالحقيقة عند جيمس شيءٌ يصنع مثل الصحّة والثروة والقوّة من خلال تجربتنا، ويؤكّد جيمس أنّ الحقيقة الموضوعيّة لا وجود لها، ولا يمكن العثور عليها، والسبب في أنّنا نسمّي الأشياء حقيقةً هو لأنّنا عددناها كذٰلك بحسب تحقيقها لما نريد من أفعالٍ. [انظر: بدوي، مدخلٌ جديدٌ إلى الفلسفة، ص 146]

أمّا الحقيقة المطلقة عند جيمس فهي «الحقيقة الّتي لن تغيّرها أيّ تجربةٍ، هي النقطة المثاليّة، الّتي نتخيّل أنّ كلّ حقائقنا ستتلاقى فيها ذاتٍ يومٍ. ليكن هٰذا في وسع الإنسان المستنير تمامًا أن يتصوّره وأن تتصوّره التجربة الكاملة تمامًا. وإذا تحقّق هٰذا المثل الأعلى المزدوج، فسيحقّق كلا الأمرين معًا، وبنفس العمليّة لٰكن إلى أن يتحقّق هٰذا لا بدّ لنا أن نعيش اليوم على ما نستطيع امتلاكه، فيما يخصّ الحقيقة اليوم حقًّا، مع استعدادنا أن نعترف بأنّ ما هو حقيقةٌ اليوم قد يصبح خطأً غدًا» [المصدر السابق، ص 145 و146].

وإذا كان جيمس يعترف بوجود حقائق متعدّدةٍ بعدد الأفراد، فإنّه يعترف أيضًا بوجود حقيقةٍ مطلقةٍ وفي إمكان العقل أن يصل إليها، إلّا أنّ العقل لا يعرف أنّه وصل إلى الحقيقة، ثمّ يعترف بأنّ غرائزنا هي الّتي تحتّم علينا أن نقول بالحقيقة المطلقة، ويعدّ ذٰلك ضعفًا في النفس الإنسانيّة تجب مقاومته. [انظر: جيمس، العقل والدين، ص 16 ـ 18]

وعليه فإنّ جيمس يرى أنّ مقياس الحقيقة أو معيارها هو نجاح الفكرة عمليًّا، فالفكرة تكون صادقةً أو ناجحةً متى ما حقّقت آثارًا أو نتائج عمليّةً مفيدةً.

الدين

تعدّ نظرة جيمس إلى الدين ظاهرةً إنسانيّةً تجلب النفع لمن يعتقد به وهٰذا المفهوم مخالفٌ للدين الحقيقيّ. حيث يقول: «فإذا آمنت بالله فإنّ هٰذا الإيمان وحده لا بدّ من أن يجعل من الله حقيقةً واقعيّةً في حياتك، وهٰكذا ترى القيمة العمليّة لعقيدتك في القيمة الفوريّة الروحيّة لاعتمادك على قوّةٍ خلقيّةٍ تغمرك بحبّها وصداقتها، وهي قوّةٌ أعظم من قوّتك، إنّ الإيمان بالله

لهو استثمارٌ مجزٍ، فهو يعود عليكم بكسبٍ قوامه نفسٌ مطمئنّةٌ؛ لأنّه يزوّدك بمرشدٍ قويٍّ يهديك إلى تحقيق اسمى أمانيك» [هنري توماس، أعلام الفلاسفة.. كيف نفهمهم، ص 379].

3- إرادة **الاعتقاد**

لقد وضع جيمس المسألة الدينيّة أو الإيمان مرادفًا لإرادة الاعتقاد، وقد بيّن من خلاله أنّ جوهر الإيمان هو الإرادة حيث قال: «إنّ الإنسان لا يحتاج في مجال الدين إلى الصدق أو الإخلاص، ولا إلى إثبات صدق الأشياء والتأكيد عليها، ولٰكنّ الأمر هنا يعود إلى إرادة شيءٍ لم تؤيّد حقيقته الواقعيّة تأييدًا علميًّا، ولم ترفض كذٰلك من وجهة النظر العلميّة، فالإنسان هنا يريد» [الشنطي، وليم جيمس، ص 171].

4- **الأخلاق**

لقد بيّن جيمس حسب نظرته البراغماتيّة الطريق الّذي يؤدّي إلى ظهور القواعد الأخلاقيّة وبناء الحياة الخلقيّة للجماعات الإنسانيّة، فيقول: «إنّ علم الأخلاق فيما يتعلّق بالناحية المعياريّة مثل العلوم الطبيعيّة في أنّه لا يمكن استنباطه كلّه مرّةً واحدةً من مبادئ ذهنيّةٍ، بل لا بدّ أن يخضع للزمن، وأن يكون مستعدًّا لأن يغيّر من نتائجه من آنٍ لآخر. والغرض المبدئيّ في كليهما، طبعًا، هو أنّ الآراء الذائعة حقٌّ، وأنّ القانون المعياريّ الحقّ هو ما يعتقده الرأي العامّ. وإنّه من الحماقة حقًّا بالنسبة لكثيرٍ منّا أن يحاول وحده التجديد في الأخلاق أو في العلوم الطبيعيّة. ولٰكنّ الزمن لا يخلو أحيانًا من أن يوجد فيه بعض الأفراد الّذين لهم هٰذا الحقّ من

التجديد، وقد يكون لآرائهم أو لا فعالهم المجدّدة بعض الأثر المحمود، فقد يضعون مكان القديم من (قوانين الطبيعة) أخرى خيرًا منها، وقد يوجدون بمخالفتهم القواعد الخلقيّة القديمة في ناحيةٍ ما حالةً أكثر مثاليّةً وكمالًا من تلك الّتي كانت وتكون تحت تأثير القواعد القديمة» [جيمس، إرادة الاعتقاد، ص 101].

ومعنى هٰذا أن جيمس يرى أنّ علم الأخلاق مثل العلوم الطبيعيّة مستعدٌّ للتغيير من نتائجه من آنٍ لآخر على مرّ الزمن على أساس أن الآراء الذائعة حقٌّ، وأنّ القانون الحقّ هو ما يعتقده الرأي العامّ، وأنّه قابلٌ للتغيير كلّما تغيّر الرأي العامّ. وقد يتغيّر الرأي العامّ بتأثير أحد الأفراد. ويرى جيمس أنّ الأحكام والقواعد الأخلاقيّة تجريبيّةٌ ومتطوّرةٌ مع الزمن، ولا ثبات لها إلى أن ينتهي الإنسان من على الأرض، وهو بهٰذا يسوّي بين الأخلاق والطبيعة في أنّ كلًّا منهما خاضعٌ للتجربة الإنسانيّة. فلا يمكن تكوين فلسفةٍ أخلاقيّةٍ أو قواعد نظريّةٍ للأخلاق عن طريقٍ غير تجريبيٍّ، وإنّ الإنسان هو الّذي يبني الفلسفة الأخلاقيّة والحياة الخلقيّة للجماعات الإنسانيّة، ومن هنا لا يمكن أن تكون هناك أحكامٌ أخلاقيّةٌ مطلقةٌ حتّى ينقرض النوع الإنسانيّ، وما يصدر عنه من سلوكٍ. [مجموعةٌ من الأكاديميّين العرب، الفلسفة الغربيّة المعاصرة، ج 1، ص 47]

تاسعًا: نقد المنهج البراغماتيّ عند ويليام جيمس

وسوف نذكر هنا مجموعة النقود أو الإشكالات الّتي ترد على النهج البراغماتيّ الّذي سار عليه ويليام جيمس، وأسّس فلسفته عليه، وهي عبارةٌ عن:

1ـ تعدّ نظريّة ويليام جيمس في المعرفة نظريّةً تجريبيّةً بالمعنى الدقيق؛ لأنّه كان يعالج كلّ مشكلةٍ معرفيّةٍ علاجًا يقوم على التجربة الجزئيّة

المحسوسة، رافضًا كلّ تفسيرٍ عقليٍّ ومحاولًا سدّ الثغرات الّتي لم يستطع التجريبيّون السابقون أن يملؤوها، وهٰذا يؤدّي بدوره إلى أنكار الحقائق المطلقة والقيم الثابتة؛ لأنّ التجربة وحدها لا تستطيع أن تعطي مفهومًا عامًّا وشاملًا للحقائق، فهي في حالة تغيّرٍ مستمرٍّ، ومن ميزتها عدم الثبات، فنحن لا ننكر المنهج التجريبيّ ودوره في الكشف عن الظواهر المادّيّة، ولٰكن ينبغي أن يستند إلى مقدّماتٍ عقليّةٍ ميتافيزيقيّةٍ، تعطي للتجربة نتاجها الصحيح وضمن دائرتها في هٰذا الكون، وكذٰلك القول بأنّ "القضيّة الّتي تقبل التجربة لها معنًى دون غيرها"، فالبراغماتيّة نظريّةٌ عقليّةٌ تحليليّةٌ ميتافيزيقيّةٌ؛ لأنّها في نظريّة المعرفيّة ذهبت إلى معيار الصدق في القضايا، مع أنّها ترفض الميتافيزيقيّة، فهي تبطل نفسها بنفسها.

2ـ لقد جعل ويليام جيمس ـ كما ذهب إلى ذٰلك أتباع الفلسفة البراغماتيّة ـ الفرد مصدر القيم، وهو الّذي يولّدها حسب ما يراه من منفعةٍ تخدم مصالحه، إذ جعل المقياس في قبول القيم وعدمها هو الفرد نفسه، وهٰذا يدلّ على محوريّة الإنسان بدل محوريّة الله، وهٰذا هو مذهب الأنسنة الّذي بدوره يؤدّي إلى النسبيّة في كلّ شيءٍ، إذ يكون الحقّ مدار الفرد وما يراه حتّى ولو كان على حساب الآخرين وفي ضررهم، وهٰذا بدوره يؤدّي إلى التنافر بين الناس وعدم انسجامهم في سلك المجتمع؛ لأنّ كلّ فردٍ سينتقي لنفسه الرأي الّذي ينفعه بغضّ النظر عمّا يتّخذ سواه من آراءٍ، فهي فلسفةٌ تعتمد على مزاج الإنسان ومنفعته الشخصيّة. فعند جيمس القبيح ما قبّحه الإنسان الفرد، والحسن ما حسّنه الإنسان الفرد.

3ـ أنّ القول بالأنسنة في المعرفة يؤدّي إلى النسبيّة، إذ يكون الإنسان محورًا ومقياسًا وميزانًا للحقائق، وأنّ الإنسان الفرد هو المعيار في كلّ شيءٍ، وعلى هٰذا الأساس يصعب التفاهم بين الناس، فلكلّ فردٍ عالمه الخاصّ به

دون غيره، وهذا بالنتيجة يؤدّي إلى التناقض في الواقع؛ وذٰلك لكون الواقع هو ما يعيشه الفرد دون غيره.

4ـ ما ذهب إليه ويليام جيمس في الحقيقة أو الصدق يفتقر إلى الموضوعيّة؛ لأنّه جعل الحقيقة خاضعةً للمنفعة الشخصيّة، وطبّقها في مجال العلم، بحيث لا تكون الحقيقة مفيدةً إلّا إذا كانت لها نتائج علميّةٌ، وهٰذا بدوره يؤدّي إلى نسف الحقائق العلميّة من أساسها، وخلاف الموقف العلميّ. فكلّ علمٍ لا ينتج ثمرةً وفائدةً فهو كاذبٌ، وإن كان مطابقًا للواقع، وكلّ علمٍ ينفع ويفيد فهو صادقٌ، وإن كان مخالفًا للواقع.

5ـ أنّ ما ذهب إليه جيمس يدعو إلى النسبيّة في كلّ شيءٍ، إذ إنّ أيّ قضيّةٍ من القضايا لها آثارٌ ونتائج لشخصٍ، ويفقدها شخصٌ آخر، أو في فترةٍ من الزمن تكون هٰذه القضيّة لها آثار الفرد، وفي فترةٍ أخرى تفقدها، فالحقيقة عنده سيّالةٌ غير ثابتةٍ إطلاقًا.

6ـ أنّ ما ذكره ويليام جيمس من إرادة الاعتقاد وفرض وجود لله من أجل منافع ومكاسب عن طريق ذٰلك الاعتقاد، فهو بالحقيقة تفريغ الإيمان من محتواه، وبالنسبة للدين فقد أقصى مفهومه الحقيقيّ، وأعطى الاهتمام الأكبر للنتائج والآثار المنفعيّة للتجربة الدينيّة، فالإيمان الّذي يقول به هو الإيمان الّذي يكون من أجل المنفعة والفائدة، حتّى وإن كانت عن طريق الدين. حيث يترك الحقّ للإنسان في اختيار الجانب الّذي يحقّق له السعادة حتّى ولو كان على خطإٍ، المهمّ أن يكون سعيدًا في حياته وراضيًا بما يعيشه ويدع كلّ شيءٍ للمستقبل، سواءٌ كان حكمًا صحيحًا أو خاطئًا.

7ـ وما يخصّ الأخلاق والقيم الأخلاقيّة، فقد جعل الإنسان هو معيار القيم الأخلاقيّة، بحيث يقوم كلّ فردٍ بصياغة قيمةٍ أو قانونٍ أخلاقيٍّ حسب ما يراه مناسبًا لرغباته وحاجاته، فتكون على هٰذا الأساس القيم الأخلاقيّة

متعدّدةً بتعدّد الأفراد. وهٰذه هي النسبيّة بعينها في الأخلاق.

8ـ أن هٰذه المبالغة في الحرّيّة الإنسانيّة الفرديّة ـ وأنّ الإنسان مصدر الخير والشرّ ـ وتقديمها على القيم الدينيّة والأخلاقيّة، يؤدّي إلى انتشار الإباحيّة والرذيلة. فعلى هٰذا الأساس تسعى البراغماتيّة لتحصيل المنفعة عن طريق أيّ وسيلةٍ (فالغاية تبرّر الوسيلة)، ونرى هٰذا واضحًا وبشكلٍ جليٍّ في المجتمعات الغربيّة، وفي أمريكا الّتي نشأت فيها البراغماتيّة.

الخاتمة

تعاني الفلسفة البراغماتيّة وما ذهب إليه ويليام جيمس من مشاكل كثيرةٍ، توقعها في الكثير من المحذورات الفكريّة الّتي بدورها تهدم ما ذهبت إليه هٰذه الفلسفة في بنائها المعرفيّ، إذ ركّزت هٰذه الفلسفة على التجربة العلميّة على أنّها رأس مال الإنسان الوحيد، متغافلةً عن الأدوات المعرفيّة الأخرى الّتي لها واقعٌ، وتحكي عمّا وراءها مثل العقل، والشهود الباطنيّ، وإنكار البعد الميتافيزيقيّ الماورائيّ للإنسان، والنظر إلى بعده المادّيّ فقط، متغافلةً روحه وجوهره الّذي له الدور في بناء شخصيّته.

وإنّ التركيز على محوريّة الإنسان الفرد في هٰذا العالم، وإقصاء الله ـ تعالى ـ من ساحة وجوده، وأنّ القيم الأخلاقيّة والحق والصدق يدور مدار الإنسان الفرد، فالحُسن ما حسّنه الإنسان، والقبيح ما قبّحه الإنسان، كلّه يؤدّي إلى وقوع هٰذه الفلسفة بالنسبيّة الّتي بدورها تنفي أيّ قيمةٍ معرفيّةٍ واقعيّةٍ ـ حتّى لنفس الفلسفة البراغماتيّة ـ وتجعل الأفراد عبارةً عن أناسٍ نفعيّين لا هدف لهم إلّا الحصول على اللذّة والانحلال الخلقيّ الّذي يجعل المجتمع عبارةً عن غابةٍ يأكل القويّ فيها الضعيف، وعلى هٰذا الأساس فما ذهب إليه روّاد هٰذه الفلسفة وعلى رأسهم ويليام جيمس قاصرٌ عن أن

يعطي معرفةً شاملةً تحلّ مشاكل الإنسان الفرد، فضلًا عن المشاكل الّتي تعاني منها الكثير من المجتمعات. فلا سبيل أمامنا إلّا أن نأخذ بالدراسة بعدي الإنسان المادّيّ والروحيّ، وارتباطه بالله تعالى، ومن خلالهما نستطيع أن نحلّ الكثير من المشاكل الّتي تعاني منها المجتمعات، وفق نظرةٍ شاملةٍ قائمةٍ على أساسٍ معرفيٍّ صحيحٍ.

قائمة المصادر

1. إبراهيم، زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر ـ القاهرة، 1968 م.
2. إبراهيم، مصطفى إبراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ـ القاهرة.
3. إسلامي، عزمي، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، وكالة المطبوعات ـ الكويت، ط 1، 1980 م.
4. الأهواني، أحمد فؤاد، نوابغ الفكر الغربي (جون ديوي)، دار المعارف ـ مصر، ط 2، 1959 م.
5. بخيت، هاني محمد رشاد، البراجماتية الأمريكية المعاصرة.. أصولها اليونانية، المكتبة المصرية، الإسكندرية.
6. بدوي، عبد الرحمن، الموسوعة الفلسفيّة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت، ط 1، 1984 م.
7. بدوي، عبد الرحمن، مدخل جديد إلى الفلسفة، وكالة المطبوعات ـ الكويت، ط 1، 1975 م.
8. بوترو، إميل، العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة، 1973 م.

9. بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوربا، ترجمة: عزة قرني، سلسلة عالم المعرفة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت.
10. جلال، شوقي، العقل الأمريكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة.
11. جون ربورر، الفلسفة وقضايا العصر، ترجمة: أحمد محمود، الجمعية البشرية العامة للكتاب، 1990 م.
12. جوناثان ري، الموسوعة الفلسفيّة المختصرة، ترجمة: فؤاد كامل وآخرون، المركز القومي للترجمة ـ القاهرة، ط 1، 2013 م.
13. جيمس، ويليام، إرادة الاعتقاد، ترجمة: محمود حب الله، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة، 1996 م.
14. جيمس، ويليام، البراجماتية، ترجمة: محمد علي العريان، المركز القومي للترجمة ـ القاهرة، 2008 م.
15. جيمس، ويليام، العقل والدين، ترجمة: محمود حب الله، دار الحداثة ـ بيروت.
16. الحاج، كميل، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون ـ لبنان، 2000 م.
17. الحجيلي، منصور بن عبد العزيز، البراجماتية عرض ونقد.
18. رشوان، محمد مهران، مدخل لدراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة، 1984 م.
19. زيدان، محمود فهمي، وليم جيمس، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ـ الإسكندرية.
20. الشاروني، حبيب، محاضرات في الفلسفة المعاصرة، دار الفكر الجامعي ـ الإسكندرية، 1978 م.

21. الشنيطي، محمد فتحي، وليم جيمس، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة.
22. الشيباني، عمر محمد التومي، تطور النظريات والأفكار التربوية، دار الثقافة ـ بيروت، ط 3، 1971 م. http://www.ahewar.org
23. صلبيا، جميل، المعجم الفلسفيّ، دار الكتاب اللبنانيّ ـ بيروت، 1982 م.
24. ضياف أمال، الأساس الفلسفيّ للدين عند ويليام جيمس (رسالة ماجستير)، 2017 م.
25. الطويل، توفيق، الفلسفة الخلقية، منشأة المعارف ـ الإسكندرية، 1960 م.
26. الطويل، توفيق، مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة، ط 1، 1953 م.
27. عويضة، كامل محمد محمد، وليم جيمس رائد المذهب البراغماتيّ، سلسلة الأعلام من الفلسفة، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط 1، 1993 م.
28. فام، يعقوب، البراجماتزم، لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة، 1936 م.
29. فرحان، محمد جلوب، دراسات في فلسفة التربية، مطبعة التعليم العالي بجامعة الموصل ـ العراق.
30. كامل، فؤاد، أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل ـ بيروت، ط 1، 1993 م.
31. الكحلاني، حسن محمد، فلسفة التقدم، مركز الإسكندرية للكتاب ـ مصر، 1997 م.

32. كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ـ القاهرة، 2012 م.
33. كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ـ القاهرة، 2012 م.
34. مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ـ القاهرة ، 1983 م.
35. مجموعة من الأكاديميين العرب، الفلسفة الغربية المعاصرة، منشورات الاختلاف ـ الرباط، ط 1، 2013 م.
36. محمود، زكي نجيب، حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق ـ القاهرة، ط 2، 1982 م.
37. محمود، زكي نجيب، من زاوية فلسفيّة، دار الشروق ـ القاهرة، ط 4.
38. المرهج، علي عبد الهادي، الفلسفة البراجماتية.. أصولها ومبادئها، دار الكتب العلميّة ـ لبنان.
39. منتهى عبد جاسم، سيكولوجية الدين عند ويليام جيمس، الحوار المتمدن، العدد 3352.
40. منصور، عصام محمد، الفكر التربوي المعاصر والبراجماتية، دار الخليج ـ عمان، 2017 م.
41. النشار، مصطفى، مدخل جديد إلى الفلسفة، دار قباء للطباعة ـ القاهرة، ط 4، 1998 م.
42. نصري، هاني يحي، دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة، ط 1، 2002 م.
43. هنري توماس، أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم، ترجمة: هنري أمين، القاهرة.